زهير أبو سعد

عنوان الكتاب: آلهة من دم
اسم المؤلف: زهير أبو سعد
تصميم الغلاف: معتزّ عدنان العزّام

الطبعة الأولى 2018 م

© جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للكاتب زهير أبو سعد

رقم الإيداع: 2018/7417
Literar-Mechana

طُبع في مطبعة Expressprint

رواية

آلـهة من دم

زهير أبو سعد

مقدمة

الكاتب: زهير أبو سعد

العنوان: آلهة من دم

هذه المرة يطرح الكاتب المتألق زهير أبو سعد صرخة جديدة أو وجع عصري نعاني منه في المجتمعات التي نعيش في إنحلالها الأخلاقي ومفهومها العكسي للديانات. لقد صب على ورقه سلاماً مجبولاً بنكهة الحب والأخلاق ما يهون على القارئ فهم الحياة بسلاسة هذه الروح الورعة التي لا تعرف معنى الدنس والقذارة، مبرأ جميع الأديان من التهم الإجرامية التي تعج بها البلاد، مجسداً هذا في شارلوت اليهودية وخديجة المسلمة المختلفتين تماماً عن بعضهما، حتى ربطهما القدر في نهاية طريق الإنسانية والأخلاق، التي لم تعرفها شارلوت منذ ولادتها التي كان لجسدها الفائق الأنوثة والجمال محطة لكل جائع جنسي وذئب بشري خانته الرجولة ليرفهوا فحولتهم بجسد يلهث وراءه ذكور تعج جيوبهم بأموال الفقراء وهم بكامل استعدادهم لدفع مبالغ طائلة مقابل ليلة قمرية يتعرى بها

جسد مثير مطروح على الأسرة للإشباع ..... إشباع مؤقت ..... قليل من الوقت ..... شيك برصيد ضخم ..... أي عهر ذكوري هذا، هذا هو الإرهاب الحقيقي الذي لا تطوله كاميرا ولا يبثه إعلام. لقد آوى الزمن شارلوت في رزمة من الأخلاق الوردية التي تمارس دينها على مصداقيته بعنوان الحب ، التسامح، الاخلاق ، أما غير ذلك الدين مبرأ من أي إرهاب و سفك للدماء والقاذورات التي اقترفها أولئك المجرمون تحت مسمى الشرائع والأحكام الإسلامية.....

فمتى يفهم بنو البشر أن الدين دين تساااااامح و حب وأخلاق لا لسفك الدماء ولا للقتل، في يومنا هذا ، ولهذه الصرخة بقية.

لك مثل صغير ، عندما سار عمرو بن العاص الى الإسكندرية (مصر) لقتال الروم، وشاع الخبر أنه لما أمر بفسطاطه أن يقوض أصابوا يمامة قد باضت في أعلاها ، فأخبروه فقال: " قد تحرمت في جوارنا ، أقروا الفساط حتى تطير فراخها ". فأقروه!

فكتبت مارية القبطية أبياتاً نقلتها عنها أرمانوسة ابنة المقوقس عظيم القبط في مصر أسمته نشيد اليمامة إليك بعضاً منها:

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها أيتها اليمامة، لم تعرفي الأمير وترك لك فسطاطه ، هكذا الحظ: عدل مضاعف في ناحية ، وظلم مضاعف في ناحية أخرى. احمدي الله أيتها اليمامة ، أن ليس عندكم لغات ولا أديان ، عندكم فقط : الحب والطبيعة والحياة.

ووقتها فتحت مصر دون أي سلاح أو عنوة من ورع عمرو بن العاص.

فبأي إرهاب تتهموننا ما أجمل تاريخنا وما أهول واقعنا ، متهمين بديننا ومحاربين بشريعتنا ....

إن جميع الأديان السماوية سواء كانت يهودية أم نصرانية أم إسلامية فهي أديان تدعي الى الله وحده والإخلاص لله وحده، الأنبياء جاؤوا بشرائع مختلفة وكل شريعة تأتي في زمنها لإتمام رسالة أمر الله كل نبي بتأديتها ، نحن اختلفنا بالشرائع والملل ولكن كلنا ندعوا الى رب واحد.

خديجة الصديقة والجارة المتألقة بالطهر والعفاف المتحلية بالأخلاق التي ورثتها عن دين نبيها محمد (عليه الصلاة والسلام) متبعة قاعدة (الدين خلق)

وبقول النبي محمد عليه الصلاة والسلام " أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق."

الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل.

لقد صدقت مع شارلوت بإيمانها وبدين معاملتها لها برفعة الحب الذي يسمو في حياتها و الذي بثته كنور الى قلب شارلوت الذي رمم خلايا جسدها المتآكل من الزنا والمهترء من الفاحشة، وأن أبواب التوبة شرعت لها تاركة خلفها كل شيء وكأنها تقول لها التوبة تجب ما قبلها من معاصي و آثام لا تقلقي داخلك طاهر أكسيه خارجياً بالعفاف.....

لقد نظرت خديجة الى شارلوت بعين الحب والإنسانية والأخوة.....يمامتان حلقا نحو السلام في سقف إحدى قاعات باريس بثياب الحشمة بمناديل الطهر المحملة بالحب والنقاء.

شروق المسالخي

إهداء

إلى الأحبة ، تلك الوجوه الراحلة عبر القلوب ، الذين وقفوا معي وقفة حب ، و حاكوا للعلم نوراً بلمساتهم الرائعة ..

شروق المسالخي ..

معتز عدنان العزام ..

شَارلوت ..

عطرٌ قابضٌ للأنفاس ..

مُلقاة على عَبثية العُنق الرشيقة ..

نَحيلة الخصر يُطوقُ وركيها سلسلة نُحاسية ..

و شعرٌ كَثٌ غجري كَخواتم الآلهة آريس ..

مُنفلتٌ للهواءِ الطلقِ ، من علوِ شرفة مُطلة على بُرج إيفل في العاصمة الفَرنسية باريس ..

باريس يا قَارُورَة العَطرِ المُترعة بالنَمش المُتراكم على خديِّ شارلوت ..

شَهية كدُراقٍ نَضجَ تَحتَ استواءِ الصَيف ، كَانت البلكونة في العمارة الثَامنة في الحَي الأول تَشهدُ تَبرجاً مَحموماً ..

تَبرُجاً من نَوع النُعومة ، أُنثى مُغطاة بالكريمة تَستلقي تَحت دَغدغة الشَمسِ ، تَتَقلبُ بَجسدهَا الرَطب بسرعة ذَوبانِ السُكرِ في فَمِ مُتعطشٍ ، جسد مُفرغ من الضَوءِ .. كَانت هي الضَوء ، و كُنَا نَحنُ كُومبارس أمَامَ شَاشَة التقلبِ ، لا شَيء يَعنيهَا في هَذا الكَون سوى التخلُصِ من يومها بأية وسيلة كَانت ..

نَعم كَانت تُقلبُ الصُحُف بتوجس ، تُنقبُ عن وظيفة في أحدِ مَحالِ الألبسة ذات الصرعات الأخيرة ، تُمسكُ الورقة بقرف كَي لا تَتسخ العناوين ..

عَناوين مُهمة مُتراشقة على مرمى السُطور الوَهمية ، كَانَ كُل شَيء مُقرف و مُمل ، و كَانت الأظَافر الطَويلة مَطلية باللونِ الأسود ، رُبما هذهِ الليلة لَديها مَوعد مع أحد الأسرة..

هُناك أسرة لُتريح وجعكَ ، و منها لتُخمد تعبك ، و منهَا لتُطفئ نهمك ، و منهَا لتستنزف شهوتك ، و أنت و السَرير الذي ترغب ..

جسدٌ عارٍ تُقلبهُ بعد عَصرٍ باريسي على زفير الشَمس ، و شَعر ملفوف بمماسك ليزداد التفاف الشَعر ، و أظَافر مدهونة بالسَواد و اللمعانِ ..

ـ ألو بُونصواغ ..

كانت تَتأفف من الفراغ ، و تُخرج بعد كُلِ زفير ثَاني أُكسيد الحرارة ، حرارة المَلل و الشهوة و النشوة و الغريزة المُفعمة باحتواء جسدٍ آخر ، جسد رَجُل باريسي أو إفريقي مُمتد على مَساحتهِ طياتٍ و عضلاتٍ ، مُشَبعٌ بالسُمرة ، يسترسلُ بِهَا حيثُ المسافات ، يُغرقُهَا بِقُبلة و يُخرجهُا بلمسة

، تُريدهُ سَاحراً كالذي يُحيي و يُميت ، تَتناثر تَحت إبطيهِ شُعَيرات لتستدل على عرقهِ إن أضاعتهُ و ليستدل على ضَبابها إن أشبعها ..

على مواقع الحُب ، تَكتُبُ أريدُ رجُلاً كَأنهُ آلهة ، يشبعني إذا جعتُ ، يرويني إذا عطشتُ ، أُريدهُ مفتولاً بكُلِ شَيء من شعرِ أصابعِ قدميهِ إلى شعرِ رأسهِ ، هل هُناك من رجُلٍ هُنَا!! ..

كانت صُورة لجسدهَا مقطوعة الرأسِ مُتربعة على المَوقع كَقطعة من الكريستَال يسيلُ لهَا لُعَاب من طَوى أحلامهُ تَحتَ الموت ، و عدة صُور أُخرى كَشبكة مُعقدة لا تصطادُ إلا الحيتان الكَبيرة ، أصحابِ النَظارات المُموهة و ربطَات العُنق المُنَافقة و أهلِ المنَاصبِ من سادة و قادة !! ..

كانوا يأكلوهُا لحماً و يُلقونَ بهَا و بحسابها البنكي الفارغ نهماً و شبعاً ، فلا تفتر عن ملاحَقة الرجال ، إن حصلت على رجُل الحُلم بحسابهِ الغَارق باليوروهات فأنهُ الدسم لها و لجيبها بحد ذاته ..

هل هي مدام أو آنسة !! ..

لا أعلم ما يدورُ بعقل القدر ، هُو وحدهُ الكفيل بكشفِ تَفاصيل نَحنُ أغنياء عن ما يدور حول فلكِ جسدها !! ..

جَسدها جريمة باريسية ، مُتنقلة من حُضنٍ إلى حُضنٍ آخر ، لَيس شهوة و لا رغبة ! ، بل الفراغ الذي قَتلها و ألقى بها من عُلو حُلم ، ألا و هُو البحث عن الذات و ردعاً للملذات ، و لكن رغبتهَا باحتضانِ رجُل جعلهَا تركنُ إلى زاوية من هذا العالم الأسود إلا و هُو عالم الأسرة المُشبعة بالشهوة ..

ملل قاتل حالك يسودُ قلبها ، قرفت من البحثِ عن الحقيقة و لكن الحَقيقة تعرفُهَا و تعرفُ إلى أين سوفَ تستدرجهَا ..

شارلوت ..

قال لهَا الحاخام ذات يوم :

ـ بُنيتي شارلوت عُودي إلى الرب ، سوف تَجدينَ السعادة الأبدية و الحياة السعيدة ..

تساءلت كثيراً وقتها عن الرَب ! ، أينَ هُو ! ، و من يكون ! ، و لما صنعَ معي كُل هَذه الجرائم و ركبهَا في قلبي و جعلني أهوي إلى مُنحدراتِ الأسرة ..

أسرة شاعرة تَنتظرُني ..

تلمحُ ظلي تقل ظل بُرج إيفل ..

تُدقق في تفاصيل مَلابسي الخارجية قبل الداخلية ..
تَنتظر أن أقلع ذاتي و أتعرى لكُل من هُو وَقح و سفيه ، و تُصفر لي كشُبان الشوارعِ عندما يُعجبونَ بأُنثى خليعة ، يراودني أن أحرقَ تلكَ الأسرة و أجعلها رماداً كرُذاذِ الكابتشينو ، و أضَعها في فُنجانٍ مُرفهٌ باللا منطق ، تبخرت أُنوثتي عندما ألقيتُ بالمنطقِ في سلة الغَسيل مع ثيابي الداخلية بعدَ كُلِ ليلة مَحشوة بالنشوة ..
مَللت ..
أُريد الذهاب إلى طَبيب نَفسي ! ..
و من أجل مَاذا ! ..
من أجلِ مرضٍ أنا أعرفُ تَشخيصهُ و أعرفُ داءهُ و دواءهُ ، و لكن بحاجة إلى أن أعترفَ بالكارثة و المواجع التي تدور رحاها بين حجريِّ رُوحي ..

دوامة أعيشُ بها منذ ثمان سنوات ..
ثلاثة أشياء أُريد أن أُسندُ هذا الجُنون إليهم ، كي أُريح قلبي ، الله ، أُمي ، الحاخام ..
أين هُم ! ، أنهُم في تل أبيب !! ..
تباً للحياة ، و تباً للمَسَافات ، و تباً لأُمي ..
لم أكُن مُلمة بأُمور الشريعة اليهودية ، و لا أرغب بالخوضِ بها ، و لكن تُسعفُني الأغَاني القديمة التي يَتغنى بَها يهود المغرب العَربي ..
ـ هاالووو بُونصواغ ..
ـ عفواً آنستي أنا سائق السيد فغانسوا ، طلب مني أن أُقلك في الساعة الخَامسة إلى قَصرهِ ، أنا أمامَ بوابة المبنى التي تعيشي بهِ ..
وضعت الصحيفة جانباً ، و ألقت نَظرة إلى ساعة الحائط التي تتوسد جدار صالونهَا الذي تلفهُ ستائر الشيفون و المُري الكريستالية ، العقارب تُشير إلى الساعة الرابعة و النصف ، معها نصف ساعة لترتدي ثيابها و تنطلق إلى موعدها ..

كانت الشقة المجاورة فارغة بتاتاً ، و لا يعيش بها أحد ، و لكن سمعها ساقها لأصواتٍ خفيفة لتلك الشقة ، بينما تَضع المساحيق الخفيفة على وجهها دبيب الشقة يسري إلى اهتزاز يديها و هي تضع المسكرة على رُموشها لا تسألني عن رُمشها يا صائد الكلمات ، كأنما ريشُ طاووس مُتدلي للحبِ ، و خلعت ما فيها و ارتدت ذاتها كما تُحب و كما ترغب ..

تُعجبُها المساحيق الخفيفة ، تُحبُ نمشها كَساربٍ يَحطُ على عُري ظهرهَا و التواءِ وجنتيهَا ، تَعشقُ السَواد لأنهُ يعكسُ ذاتهَا كيانهَا إغراءها نشوتهَا شهوتهَا ليلهَا ظُلمة قلبها رائحة جوار رجالها و عُطونة سراويلهم الداخلية و غفوة إبطهم ..

تُحبُ الفُستَان المُسدل إلى الأرض ، تُريد أن تُغري الأرض و هي تَجرُ بخطيئتها و تطوي من خلفها القُلوب ، تهوى شق الفُستانِ من الجهة اليُسرى و لا ترتديهِ إلا بشقٍ ظاهرٍ خفي مُميت قَاتل جارٍ للأحشَاءِ و الأرواحِ و الأشباح ..

كَانت تُريد أن تَنتقم لجَسدهَا ، لتدفُن نشوتها على سريرِ رجُل لا يعرفُ منها سوى بَصيص الفُروجِ و الأثداءِ المتدلية كَحبةِ الرُمانِ التي تدلت من السماء ، يستَوقفها عقد

اللؤلؤ بحباتهِ مُتوسطةِ الحجم الطويل بخيطهِ الشَاهقِ بهبوبِ نسماتهِ ..

عُطور عدة مُصطفة لكُلِ ليلة ، لكُلِ سهرة ، لُكلِ سيرير ، لُكل موعد ، و لكلِ عطر مَقام و مقال ..

تربت الخرائط على مهلٍ ، فأنتِ تعشقي إذلال رجالِ الوقتِ ، و انصهارِ المسافاتِ و الأسرة ، بكعبٍ ناعمٍ شاهقٍ مُفرغ من اللعابِ تسيري بهِ كَما يسير بكِ العطر على مصعدِ الفضَاء ..

كم نَجمة ستصعدين هذهِ الليلة ، من سَوف يخلعُ فروَ الرقبة الأسود و يضعُ بهِ على مشجب العُيونِ التي يَسيلُ منها سُماً أسود ..

نسوا بأنكِ أنتِ سُمهُم الدسم ..

سُمهمُ الذي جمعَ بينكِ و بينهُم بعقدٍ حلالٍ حرام ..

هل أنتِ جاهزة ! ..

أُووه نسيتُ محفظتي المُفرغة من ذَاتي ، أُريد ملأهَا هذهِ الليلة بدَسم المالِ بأرقامٍ خيالية تليقُ بخيانتي للحياة ، هُم ثعالبي الأبدية و أنا ثعلبتُهم الخريفية ..

جُري للأيامِ ثوبكِ الأسود كي تتخفي بالكلمات و العبارات ، لا حكاية هُنَا تسترُ ليلكِ ، أنتِ حُلكةِ الليلِ و دماستهُ ..

ابنتَ الأحرفِ العبرية المُطلسَمة بعُقدٍ ثلاثَة :

الله ، ثُمَ أُمكِ ، ثُم الحاخام ..

بأيهم سوف تبتدئين ! ..

بهم الثَلاثة ، ولكن آثار ضَجيج في الشقة التي بجانبكِ ، هَل هُم جُدد ! .. افتحي الباب فَدرجة السُرعة بينَ الضَجيج المُجاور و انتظارِ السَائقِ تزدادُ نشوة و تذمُر ..

لم تَعتدي أن تَتجسسي على من حولكِ ، و لكنَ تَحرُش الضجيج بَسمركِ في خَفقِ قلبكِ ..

خَفقٌ بشدة بقوة بهزة بعنفوان الغير مُبالية تَفتحُ الباب كَسيدات راقيات في قُصورهن ..

أووه ماذا أرى !! ..

ـ بُونصواغ !! ..

ـ بُونصواغ .. آسفة آنستي على هذا الإزعاج ، و لكن لا بُدَ لي أن أنقل أمتعتي و شيئاً من الأثاث إلى شقتي الجديدة !!..

صدمة و مُفاجأة تُقدرُ بصعقة كهرُبائية من الحيرة ..

ما هَذا الوجه الجميل ، عينان خضراوان من كوكب الزُمرد و الزبرجد ، بوجهٍ ناصعٍ كحبة اللؤلؤ ! ، بأصابع جذابة جداً تَحملُ لوحدها الأمتعة ..

و لكن الصَدمة بأنني لم أرى شعرهَا و لا جسدهَا ، مُغطاة بالسَواد من أعلى رأسهَا إلى أخمصِ قدَميهَا ، ما هَذا ! لماذا تُخفي جَسدهَا بهذهِ الصورة المُرعبة !! ..

ـ عفواً هل أنتِ فرنسية !! ..

ابتسمت ، و ظهرت أسنانها كأنها قمر و انفلق نُوراً ، وضعت حقيبة جانباً ، و ضربت كفيها تُريدُ من ذلكَ إزالة الغُبار بالطريقة المعروفة :

ـ أووه أنا آسف ، نسيت أن أُعرفك عليّ ، أنا خديجة من رُوسيا و أعيشُ هُنا في باريس منذُ الصغر ..

بادلتُها الابتسَامة ، شعرتُ بالدفءِ ، بشيء يخفقُ بشدة في كل شرايين جسدي :

ـ أنا شَارلوت من باريس و أعيشُ هُنا في هذهِ الشقة

أوه ..

ما هذا الملاك ..

خديجة رُوسية باريسية تُجاورني !! ..

بيني و بينها حجاب ، و حائِط يزنُ تَعاسَة هذا الكون ، و لكن الذي كَسر حدَةَ الصمتِ و نُعومة الصَدمة صوت جوالي المُزعج بنغمتهِ الكلاسيكية ..

ـ الوو !! ..

ـ آنستي أنا السائق أنتظركِ أمام المَبنى ..

ـ آووه آسف أنا قدمة ..

وضعت جوالها في حقيبتها ذات السلاسل الذهبية ، و رفت رمشيها لتُلقي النظرة الأخيرة على الجارة الجديدة قَبل المُغادرة ، كانَ كل شيء مُتوقف عن الدوران ، المجرة و عَقارب السَاعة ، و الكون ، لَكن تَدخل صوت الكلب ..

ـ آووه إنه كَلبي نَسيت أن آخذهُ مَعي ..

فتحت الباب قليلاً خَرجَ الكَلب من فتَحة الباب و هو يعوي بجنون ..

ـ حَملتهُ بين ذراعيها تُعانقهُ و يُداعبهُا بلسانهِ ، أخرجت الحبل الفَضي الخاص بالكلب و قيدته جيداً ..

ـ حسناً عَزيزتي خَديجة آمل أن نلتقي قريباً ..

خديجة لا تُحبُ الكلاب و لا لمسها و لا تربيتها لأن في عقيدتها هذا المخلوق نجس ، و لكن كانت تُضمرُ ذلك في جوفها و لا تُحب أن يسمعهُ الآخرون حتى لا يُمسكوا عليها مَمسكاً ، بأن هَذا الفَكر مُتطرف ، و كانت تكتفي بالابتسامة فقط :

ـ سُررتُ بمعرفتكِ شارلوت ، و أنا أعتذر مرة أُخرى على الإزعاج ..

كُلاً أخذَ مكَانهُ من السير نَحوَ مقصده ، فلقد كَانَ الدرج لولَبي و مصعد المبنى ذهبي مُصفح بالزُجاجِ الكريستال ، صَعد المصَعد نَحو الطَابق المُطلوب و هبطَ نَحو الطابق الأرضي ، كانت شارلوت تُرتبُ مَظهرهَا عَبر مرايا المصعد و لكن دماغها بقي مُعلقاً في الطابق الأعلى عند تلك الجارة الغريبة الأطوار ..

كيف لها أن ترتدي هذا اللباس الساخن الذي يزيد من حرارة الجسد في فصلٍ حالكٍ بالجحيم .. !

أيُ جحيم هذا الذي يعتقدهُ بعض البشر ، و خصوصاً من النسَاء الغبيات اللواتي لا يعرفنَ من أجسادهنَ سوى الإثارة..

أُريد أن أُخرج هذهِ المرأة من دماغي الذي علقت به كشوكة تشابكت مع كُرة من الصُوف ، و لكن عَبث أن تخرجُ ..

كَان السائق يَتجسسُ على مواربِ البابِ من بُعد ، خرجت أول قطعة من جسدي خارج الباب و فتح لي باب السيارة الخارجي ، كُنتُ أصطحب كلبي ذُو الشعر الأشقر الطويل إلى جميع ليلاتي ، فهو يرعى جميع الأسرة الفارهة و روائح السيارة الفخمة و أنواعِ السيجارِ المكسيكي ، و حتى أنواع الكؤوسِ التي يُفرغُ بها الويسكي و الأنبيت ..

كان مُدللاً لدى جميع الرجال الذين قابلتهم ، و لكن إن مضت الليلة بسوادها حتى يأكلوني لحماً و يُلقونَ بي على أرصفة النسَيان ..

تُكون جميع الفَواتير مُسددة و الحسابات محشوة و بطاقات و الملابس الفاخرة ذات الماركات الفرنسية مملؤة ، و ما طالب و ما لذ ..

مَشت بنا السيارة نَحو سريرٍ جديد ، و قدرٍ مُعلق على ليلة لا أعلمُ أين ستكون ..

و لكن دائماً أقولُ في نفسي بأنني سأكون ..

و لكن أين ! .

لا أعرف ، كُنتُ أجلس بجانب النَافذة و كلبي يطوي تعاستهُ على فخذيّ ، أُشاهدُ باريس عن قُرب ، أشاهدُ ملامحها التي لا أُريدُها ، المدينة المأهولة بتُجارِ البشر و المُتسولين و النشالين ، هُنا في هذهِ المدينة التي لم تعرف الشفقة يوماً ، يجب أن تضع في عقلك منهجاً واحداً فقط :

أن تكون أو لا تكون ..

كُل شيء هُنا لهُ مقياس جُنوني ، الأسعار المُرتفعة في الإيجارات العقارية و الماركات المُرقعة بالموضة و العطورات البارِيسِية .. و تَمشي بكِ الأيام لتشاهدي شيئاً ملحوظاً في تلك الأزَقة ، ازدياد المتسولين و النشالين و أولاد الشوارع ..

هل هُم ضحايانَا ..

أنتِ بنت شبعانة حد الغثيان !! ..

أيعقل أن تُفكري بغيركِ !! ..

نعم ، و لما لا ، ألستُ إنسانة !! ..

كم كانت تقول لي الحياة كَم أنتِ غبية ، كنتُ أُصدقُها و أتنصت للمشاهد التي تُلاحظُ مُروري أمام كُل حي فَقير ، كانت العُيون تُشهرُ ألسنتهَا للسيارات التي تَطيرُ بي نَحوَ الظلام ، و كانَ اللُعاب يَسيلُ خلفَ زُجاج السيارات الفَارهة ، و كانَ الخَوفُ يزداد يوماً بعدَ يوم ، و مع كُل هذهِ التَناقُضات أعرفُ أنَني أغرقُ يوماً بعد يوم في الضياع ..

أُريدُ موجة قوية تُوقفُ هذهِ الدوامة ، و تلطمُ بها أرضاً كي تَتوقف عن الدوران في المكان ذاتهِ في المكانِ ذاتهِ في السرير ذاتهِ ..

قرفتُ من التنقُل من ذراعٍ إلى ذراع ، أُريدُ ذراعَ ذاتي كي تَحميني من ذَاتي ، أُريدُ سكتة قلبية و وقفة مع النفسِ تمنعني من هذا الجُنون ..

كُنَّ الجميلات يَقلنَ لي :

نَحنُ نَحسُدكِ على هذهِ الحَياة التي تعيشينها ، أيةُ حياة !! ، نعم كُل الرجالِ يتسابقُونَ إليكِ من حُضنٍ إلى حُضن ، الكُلُ يُريد أن يأخُذ نَصيبهُ من جسَدكِ ..

إن النمش الذي يخلدُ على لمعةِ جلدكِ ، لَهُ السرُ في هذا الجمال الخريفي ..

هل تعلمينَ بأنكِ تُشبهينَ ملكاتِ قبائل الغَجر !!

الجميع يترصدُ السيارة الطويلة بماركة المرسيدس ، و نوافذها العريِضة ، و ستائرها الحمراء ، و كراسيها المُنجدة بجلدِ الغزال ، و فراءِ الفُهود ، و أُنثى تتَخفى خلفَ هذا الخَراب من أجلِ قضاءِ ليلة في قصرٍ سبعة نُجوم ..

أُنثى ضائعة ، تَتستر بالميكآب و بالضبابِ كي لا تقع ، تشعُر بأنَ مسار هذا الكون مُعلق ببريق فخذيهَا ، خانتها أُنوثتها عندما سلمت جسدها للجياع ، الذين لم يشبعوا من الحُبِ يوماً ، فأرادوا مُعاقبة قُلوبهم بُمزاولةِ الرذيلة في ليالي البغاءِ ..

كانت شارلوت نتاج هذهِ الليالي الحمراء ..

لا ترضى بالليالي الرخيصة ، لقد اعتادت على ليالي الحرير و البُسط الحمراء المُلقاة في الممرات و الكُؤوسِ المملؤة بالشغفِ و الحُممِ ..

لا زالت الحسناء غارقة في صُورة جارتها التي لا تُفارق خيالها ، شعرت بأن في وجهها نُور و سعادة ، سعادة

تحتاجُها ، تُريد و لو قليلاً منها ، كي تُريد هذا التعب الغير منطقي الذي قرفت منهُ ..

وصَلت الآنسة الرقيقة إلى قَصرِ الأمير صاحب الأوسِمة البراقة في الفسَاد ، و الأموالِ الحرامِ التي اقتناتها من أفواه الفُقراء ، و الحسَابات الوهمية في أمريكا و أستراليا و غيرها من دول أُخرى ، كَان لَديه مَناجم من الماس في كُل أصقاع الأرض ، يعملُ بها ملايين الأطفال ، بأيديهم يحفرونُ الصخر و يغرقون في الوحلِ و تتغشى أعينهُم الأتربة بحثاً عن بريق يسدُ رمقَ جُوعهم ، أطفال استغلهم القدر كي يصنعوا رغيفَ خُبزٍ من أكفهم المُشققة ، و ملامحهم المُهمشَة ، و يتمهُم المُرقع ، لا أحد يسألهُم عن هذهِ الأرصدة المحشوة بالمالِ الحرام ، و هل أحد يسأل الحيتان في البحر لما تأكُل الأسماك الصغيرة ..

رُبما هُو هكذا الكون مبني على الظُلم ، الكبير يأكُل الصغير ، و لكن الكبير يعيش كُل أيامهِ خوفاً و الصغير لا يخشى شيئاً سوى الجُوع ..

وَصلت صاحبة الحرمِ المصون ، فُتحَ بابُ السيارة أمام عظمةِ الربِ ، جميع الخدمِ و الحشمِ يلمحُ قدومها ، جميع

الخادمات يرمقنها بعيونهم ، هذهِ ليلة لعنة تَحلُ على سريرِ كُل ليلةَ عُطلة نهاية أسبوع ..

تَخلعُ شال الفرو على كتفها ، و يتسارع إليها الخدم و الحشم ، هذا يأخذُ شالهَا و تلكَ تأخذُ قُفازها ، و هذَا يأخذُ حقيبتهُا ، و تلك تُمسكُ بكلبهَا ..

إنهُ عالم الترف الغير منطقي ، الترف المبني على بُؤس آلافِ الأطفالِ في أنحاءِ القارات ، لقد وعدهَا صاحب هذا القَصر بمبلغ جميل و طقم من اللؤلؤِ النفيسِ و سيارة فخمة و شقة مُطلة على نهرِ السين ، النَهر الذي غرقت به مئاتِ الأُمنياتِ و طافت على سطحهِ زُجاجات العُشاقِ التي طووا بها رسائلِ الحُبِ ..

هي لم تعرف الحُب يوماً ، لأنهُ لم يُحبها أحد قط و إنما اشتـهاها مئاتِ الرجالِ ، أحاطوهَا بشهوتهم لا بحُبهم لهَا ..

كانت تَمشي على أنقاضِ السجادِ الأحمرِ الذي جاؤوا بِهِ من معاملِ إيرانَ التي يُنسجُ بها أجمل و أجود أنواعِ السجادِ الفاخِر ..

تَتدلى من السقفِ دَوالي الثُريات التي صُنعت في مُوسكو ، و آلافٍ من اللوحاتِ المطرزة على جُدرانِ الغُلوِ و البطرِ هُنا و هُناك ..

ها هُو يتقدم ، يمشي كالطاووسِ المنفوشِ ، أصلع قَصير مُنتفخ البطنِ ، الشيب أخذَ منهُ حيزاً من الزمانِ ، مَمسوح منهُ رائحةَ الرُجولة ، يُشبه الإقطاعِيين المصريين ، إذا تراهُ تَشعُر بأنهُ فرعون يزحفُ على البحر يَخافُ من أن يغرقه اللهُ بأموالهِ ..

يتقدم كَثَعلبٍ مُروض على الخديعة ، لا يُريدُ منهَا سوى جسدهَا ، يتقمصُ عليهَا بعينين غائرتين فِيهما غبشِ الشيطَان و سواد إبليس الأب الذي جَرَّ هَذهِ البشرية إلى الأرض ..

هي أطول منهُ بكُلِ شيء ، بعزةِ نفسها ، و بجمالها ، و بشموخِ الأنوثة ، و بهيبةِ دُخولها إلى القصرِ ، و بمشيهَا المُتَزن على سجادهِ المُستورد .. هي لحمها فرنسي أصلي من أبٍ و أُم ، و هُو من لُحوم شتى اعتادَ على لحمِ الحرامِ نهشَه و قضمه و مُضاجعته و رميه بعد أن يشبع من تذوقهِ..

هذهِ أول مرة تدخُل إلى قصرهِ ، و لكنها دخلت إلى قُصورٍ أجمل و أفخم و أبسَط ، تَدلُ على ذوقِ من فيها من بشر ، و أما هذا النوع من القُصور لا تُحبهُ و لا تَهوى المُكوثَ فيهِ ، الأشياء المُعتقة تَستقذرهَا و لا تُحبُ اقتنائهَا لعدة أسباب ، و أهمها بأنها مُستعملة ، فالأشياء المُستعملة تَجلبُ لهَا الحَساسية ، كرائحة الخشبِ و السجادِ العجمي و الثُريات التي أتوا بها من القُصور القديمة ، هذهِ الأشياء بالذات تحمل أغبرة الأميرات الحمقاوات اللواتي أضعن فرصة تُسمى بفرصة الحُب ..

يُمسكُ بيدهَا ، ينحني بقامتهِ القصيرة مَحاولاً تقبيل كَفها تَمدُ لها أصابعها كَي تُشفى من حَماقة الذُكور المغرورين في هذا العالم ..

هكذا هي تُروضُ الرجَال ، بجمالِ عينيها المُشرقتين ، بَشعرهَا الأحمر الغجري ، بصمتها الذي يُؤرقُ من حولها من رجالٍ مُنتفخين ..

يجلسا على طاولة مُستديرة ، يأتي من يسحبُ الكُرسي كي تجلس ، و تُعدلُ من جلستها ، و يجلس مُقابلها في أحدِ

الغُرف التي كَانت تَحلُم بها أُمها و أمِ أُمها ، و يُسكب الأنبيت بصمت ..

خرجَ الجميع من الحُجرة ..

كَانت تَفصل الَطاولة المُستديرة ستَائر حمراء كتلكَ اللَيلة ، كَانت ابتسامة جارتي الجديدة بين عيني ، خديجة !! ..

ها ها ها ، ما هذا الاسم الغريب ! ..

نظر إليَّ من استضافني في قصرهِ الغريب الأطوار ، كانت حالة من السكرِ قَد جردتني من وعيي و أعرتني من ذاتي ، لا أُحبُ أن يأكُل لحمي أي أحدٍ و أنا بوعيي ، أُحبُ الطيران فوق الغُيوم ، و العودة وحدي إلى تلكَ الطفلة ذات الضَفائر الحمراء التي تناثرَ على وَجنتيها النمش ، إلى تلكَ الصَغيرة التي كَان يلقبونهَا بالقبيحة !! ..

نَعم ، وَصَلتُ إلى درجةِ الغُرور ، و حتى كبرتُ و اتسع وَجهي و اختفت كَثير من بُثور النَمشِ على وَجهي ، و زاد اخضرار عينَاي ، و أصبحَ جَسدي مَسرحاً لعروضِ المُوضَة ، لم أقبل إلا بالأجور المُرتفعة و لا أعرُض جسدي إلا بماركة عالمية ، انتقاماً من الفَتيات و الَوقحات اللواتي كُنَّ يلقبنني : بالقبيحة ، ها هُو الزمنُ يدورُ و يكشفُ قُبح قُلوبهن !

من هي القبيحة !! ..

أُحبُ الانتقام ..

أضحت الوسيلة الوحيدة لأُشبع تلكَ الطفلة التي لم تَكُن تقوى على النُهوض و تردُ على شلالاتِ الوقاحة من أفواه الفَتيات المغرورات ..

أضحت هذه العادة مصيدة و انتقاماً لجسدي ، بدأتُ أُفتشُ عن انتقامٍ آخر ، وجدتُ الجنس أفضل انتقام لذاتي التي أشبعتُها مرضاً نفسياً ، و لكن كَانت المُصيبة مُصيبتان ..

مُصيبة الغُرور و مُصيبة الجنس الأعمى ..

شبت النشوة بالثُور الذي أمامي ، كُنتُ غائبة ، نعم أردتُ أن أكون غائبة ، و لا أشعُر بوجودي ، هكذا أنا أشربُ حتى النوم ، لا أُريد أن أرى المشاهد التي تُعريني ، و تسحبُ ثوبي ، و تُلقي بمصاغي خلفي ، و تحملني إلى سرير لا أعرفُ صاحبهُ و لا من أين أتى ..

خديجة أنجديني !! ..

ماذا تقولي أنت يا سافلة !! ..

خديجة ليست هُنا ، إنها جارتكِ الجميلة من دببةِ مُوسكو ، هي لا تعرف أين أنتِ ، و لا على أي سرير تنامين ..

نامي كما تنامُ بناتُ أوى مُبطناتٍ بلحمٍ ميت ، ها هُو يُعريك ، و ينهشُ لحمكِ ، الليلُ ينظرُ إليكِ ، و النُجومُ تَدشنُ عُريكِ ، و الظُلمة تستدلُ على رائحةِ جسدكِ ..

ها هو انتهى من لحظة كَان يحلُم بها مُذ أن رآكِ تمشينَ في أحدِ صالاتِ المُوضة و تتجولين بكعبكِ الشاهقِ ، كانَ كعبا قدمَيكِ يطرُقانِ أرض الصالة برُعبٍ ..

كُنتِ تُرعبينَ قُلوبَ الجميع بثقتكِ بنفسكِ ، و اليوم ترتعبينَ منهُم بعد أن عرفوا أرقامكِ السرية ، و لكن لا زلتِ تتحلينَ بالقُوة ، و أينَ أتيتِ بها ، إنها من تلكَ الطفلة التي لاقت ما لاقت من بناتٍ مغروراتٍ ، و ها هي خديجة أتت ، و لكن من أين لها هذا النُور !! ..

وحدها خديجة تعرفُ مصدر نُورها و ثقتهَا بنفسهَا و جمالها الذي تُغطي نصفهُ بقطعة قُماش أسود حالك !! ..

كانَ النورُ يسري على دربِ الجسدِ المُبتلِ باللعنة بلا حياءٍ و لا خجل ، لم يكن هُناك خجل لطالما أن بعدَ الليل نُور ، إنهُ النور الذي يُشبهُ قديسةَ الحُبِ ، تلكَ القصة التي كانت تحكي لها أُمهُا عنها قبل النومِ .. أيُعقل أن تكون قديسةَ الحُبِ

جارتي الجديدة خديجة .. اسمهُا ثقيل كجمالهَا ، لا أعرفُ نُطقهُ ، تماما كجمالهَا ..

كانت الساعة الثامنة صباحاً ، الساعة مُعلقة على جدارِ الغُرفة الثعلبُ لم يَكُن بجانبي ، تركَ رسالة على الوسادة ، هكذا ديدن الثَعالب المَاكرة التي بينها و بين الغدرِ انقضاض غدرٍ ..

كُنتُ عارية تماماً ، النوافذ الضخمة أتاحت للشمسِ الدُخول إلى السرير الذي يتوسط الغُرفة ، أمسكتُ الرسَالة ، رائحة فَساد و دم و عرق أطفال و أيتام و أولاد شوارع :

عزيزتي شارلوت ، لقد استمتعتُ معكِ الليلة التي ذهبت ، و هذا شيك بمبلغ مليون دُولار و أوراق للشقة التي وعدتكِ بها ، و أنا قد خرجتُ إلى موعد عمل .

أتمنى لكِ يوماً سعيداً . فرانسوا ..

رميت بالورقة أرضاً ، أخذت الشيك ، و أوراق الشُقة التي كُتب عليها تنازُل تحت اسمها ، و رقم الشيك الذي جنتهُ في لحظة شهوة ، و من يسألهُم عن أموالهم من أين أتوا به ما دام هذا المال جَميعهُ من تعبِ الفُقراءِ و الأطفالِ و الضعاف..

طُرقَ الباب :

ـ أُدخُل ..

كانت ترتدي ثيابها الداخلية السوداء ، كانت ثيابهُا الداخلية كليلتها السوداء ، دخلت كَبيرة الخدم :

ـ بونجور آنستي ! ..

كانت امرأة كهل بمنظر ارستقراطي :

ـ بُونجور ، تفضلي ما المطلوب ..

ـ عفواً آنستي سوف أُعد لكِ الإفطار ..

ـ كلا ، لا أُريد ، احضري لي كلبي ، و أخبري السائق بأنني سوف أخرج بعد نصف ساعة من هُنا ..

يا لي القرف ..

لا أُحبُ أن أستحم في القُصور التي أبيتُ طاوية بها لعنتي ، أُحبُ أن أَعودَ إلى مَنزلي ، أَخلع ثيابي في الحمام الخاص بي ، و أُلقي بثيابي في الغسالة الخاصة ، و أنزل تحتَ الدُوش ما يُقارب ساعة أو ساعتين ظناً مني بأني سوف أُزيل نجاسة تلك الليلة ..

ها هو كلبي ..

أُحبهُ جداً ، لم أَجد لي صديقاً كهذا الحيوان ، يمضي يومهُ صامتاً لا أَسمعُ لهُ عواءً سوى عندما يأتي لي أحدٍ غريب ..

أضمهُ يلعقُ رقبتي ..

ـ آنستي لقد أطَعموهُ و أخذَ فُسحتهُ الصباحية في حديقة القصر ..

كنت أرفعُ شعري عالياً ، أُراقبُ كيفَ سيكون بهذا الشكل على المرآة الكبيرة :

ـ حسناً ، شُكراً لكِ .. !

أول مرة أَرفعهُ عالياً ، كانَ جميلاً ، كانت تقول لي صديقتي سارة المُقيمة في تل أبيب :

ـ شعرُكِ جميل جداً يا شارلوت ، لو تُغيري تسريحته ، لو ترفعيهِ مثلاً أو تُقصري من طوله أو تضميهِ عَبر ضفائر!!..

كُنتُ أكره التغيير ، و أشعُر بالإحراج إذا غيرتُ من شكلي ، و لكن هُناك شيء غريب يجول في خاطري لا يُريد أن يَخرج أبداً ، إنها جارتي التي التقيتُ بها مرة واحدة فقط : خديجة .. !!

ما هذا الاسم ! ، و لماذا هي كهذا ! ، أجمل شيء بهَا مع أنها جميلة كُلياً ، ابتسامتها و لون أسنانها الرائعة ، و عيناها الواسعتان ، تُشبهُ عارضات الأزياء العالميات :

ـ هل السيارة جاهزة عزيزتي !! ..

ـ نعم آنستي إنها تحت أمرتكِ ..

أول مرة أخرجُ رافعة شعري إلى الأعلى ، أَرفعه بالشُموخ ، و عزة النفس ، إنهُ شُعور غريب تماماً ، وضعتُ شيئاً من المكياج و من الكُولونيا النسائية ، و خرجتُ كانت الشمسُ ساطعة و درجة الحرارة مُرتفعة جداً ، فُتح باب القصر ثم باب السيارة و جميع الخدمِ ودعُوني كما استقبلوني :

ـ هل العودة إلى المنزل آنستي ! ، أم تُريدين الذهاب إلى مكانٍ آخر ! ..

كُنتُ أُراقبُ هيئتي على مرآة السيارة :

ـ نعم إلى المنزل إذا سمحت ، و لكن أرجو أن تُشغل مُكيف السيارة !! ..

ـ آووه آنستي أنا أعتذر ، سوف أفعل ذلكَ !! ..

انطلقت بنا السيارة إلى المنزل ، كانَ الصباحُ جميلاً باريسياً بامتياز ، جميلة عاصمة المُوضة لو لا الفساد المُنتشر هنا ، آه و أخيراً المنزل ، نزل كعادتهِ و فتحَ لي الباب ، أخرجتُ له مئة يورو و أعطيتهُ المبلغ ، سُر جداً :

ـ شُكراً آنستي ..

تركتُ لهُ الفراغ و مَضيتُ ، في المصعد أُدقق في ملامحي ، و مُعجبة بنفسي ، ذهبتُ و عدتُ إلى أحدِ الأسرة و كأنني لم أفعل شيئاً ، تباً للحياة التي ساقتني إلى ما لا أرغب بهِ ، كانت مرآة المصعد عريضة ، كُنتُ أول مرة أُرتبُ من مَظهري فورَ عودتي إلى المنزل عَسى أن أَرى تلكَ الجارة التي لم تُفارق عقلي ..

وصلَ المصعد كان الهُدوء في كُلِ مكان ، هُدوء يسود الكريدور في الطابق ، تَغير شيء صغير على مدخل جارتي الجديدة ، وضعت بعض الزهور البلاستيكية على الباب ، مظهر رائع مع لون جُدران المدخل ، و شجرة صغير بجانب المدخل أعطت جاذبية رائعة للمكان ، و أنا المحشوة بالمال التي لا أُرتب من حياتي شيء ، فَارغة من كُلِ شيء و حتى من الحياة ..

ما هذهِ المرأة ! ..

دَخلتُ إلى المنزل و ألقيتُ بكُلي على الأريكة ، مُتعبة من خمرة يوم أمس ، الساعة تمشي بسُرعة ، إلى الحمام إذاً ، خلعتُ ثيابي و ألقيتُ بها في سلة الغسيل ، و دخلتُ تحتَ الماء أُنظفُ آثار اللعنة ، و أمسحُ أفركُ جيداً بالشامبو و الصابون و زيت الجلد بنكهة الصبار و جوز الهند الذي أحضرتهُ من جُزر الكناري قبل سنة ..

التجفيف و السيشوار و كأس من الحليب بالعسل و عصير البرتقال و الخُبز المُحمص بالجُبنة و تَنظيف الأسنَان جَيداً و النُوم بجانب كلبي على سريري ..

آوه كم أنا مُتعبة ..

شيء غريب راودني في بداية نومي ، رأيتُ جدتي كانت ضخمة جداً و وجه مُنتفخ ، و عينان واسعتان و أجفان مُترهلة قد ارتدت طرحة الرأس التي كان يأمرُهَا جدي بهَا ، كانت امرأة مُلتزمة جداً تقرأُ التورات و لا تخرج من البيت و لا تُصافح الرجال كما في التعاليم اليهودية ، كانت تقف فوق رأسِي و تقول لي :

ـ بُنيتي شارلوت حياتكِ في خطر ، لا تجعلي من دماغكِ ألعُوبة بيد البشر ، فلا أحد يُريد لكِ خيراً على سطحِ هذا الكوكب سيوانا ..

استيقظتُ مذعُورة من ذَاكَ الكابوس المُرعب ، أُفتشُ عن كلبي أُريد أن أحتمي به و لكن لم أجدهُ أمسكت بطرف اللحافِ الأبيض لكي أُخبئُ وجهي و لكنَ الشمس دخلت إلى غُرفتي من طرف الغُروب ، آووه إنها الساعة الرابعة عصراً لقد نمتُ كثيراً و صُداع غريب في الرأس ، الحياة فَارغة رُوتين مُقرف أشياء كثيرة تنقُصني لا أعرفُها ..

نهضتُ من سريري ..

صوت يَصعدُ على مساء باريس ..

جميع الباريسيين يعرفونهُ ، صوت جميل جداً ..

إيديت بياف ، نُوته من الماضي ، سراب من الامنيات تموت كلما تقدم بنا السن ، كأن هذهِ الأعمار كانت مُهددة بالانقراض ، لعل اليوم الذي يذهب لن يعود أبداً ، و الأُمنية إن لم يُحركها حس إنساني فلن تصل إليها أبداً ..

رائحة قهوة ، و نرجس جبلي يصدرُ من البوابة التي تأخُذنِي إلى البلكُونة ، كانَ كلبي مشغول في البلكونة و هذهِ أول مرة أستيقظ من النوم و لا أجدهُ ، كان الهواء يقتحم الصالة بقوة من بوابة البلكونة ، و الستائر تتراقص بنغم الأُغنية الصادرة ، ما هذا الشُعور الرائع ، شيء جديد يحدُث هنُا ، رتبتُ من مظهري على المرآة و من ثم خرجتُ إلى البلكونة ..

أووه ما هذهِ الروعة ، كانت البلكونة المُلاصقة لبلكونتي قد غرقت بالنباتات المُزهرة ، كانت جارتي تَجلسُ على كنبٍ صيني مُلبس بالصدف و بجانبها كوب من الشاي ، و ترتدي ذَاكَ الغطاء على رأسهَا و قد وضعت لكلبي صحن

من الطعام ، عندما شاهدني قلبي بدأ بالنُباح ، كان يعطيني إشعار بأنهُ مسرور جداً حملتهُ بيدي :

ـ بُونصواغ عزيزتي ! .

ما أجمل صوتها ، فعلاً أن حياتها جميلة جِداً :

ـ بُونصواغ صديقتي ..

وقفتْ احتراماً لي مدت يدها لتُصافحني :

ـ سوف أُعرفكِ على نفسي مُجدداً ، أنا خديجة من مُوسكو ، ولدتُ هنا و أحمل الجنسية الفرنسية ، أعمل في مركز الدعوة الإسلامية في مركز باريس للإفتاء ..

شهقتُ من سماع صوتها و الصدمة التي تلقيتُها ، أوه إنها مُسلمة إذاً ، مددتُ كَفي لأُصافحها :

ـ أنا شَارلوت أعمل عارضة أزياء باريسية الأصل ..

ابتهجت و ظهرت ابتسامتها على وجهها ، توقعتُ أن تتضايق لأن هذهِ المهنة لا تُلائم المُسلمين :

ـ رائع مهنة جميلة جدا صديقتي شارلوت ، و اسمُكِ جَميل جداً ..

كَم كانت لَطيفة و رائعة ، لقد جعلتني أشعُر بالسعادة مُجرد أن أمسكتُ كفها :

ـ شُكراً لكِ أنتِ لطيفة جداً ..

ـ و أنتِ أيضاً عزيزتي شالوت ، و أنا الآن أُجهزُ العشاء ما رأيكِ أن نتناول العشاء معاً هُنا من هذهِ البلكونة الرائعة !!..

لم ألتقي بحياتي مثل هذهِ الأُنثى الرقيقة بلطُفها و جمالها و تواضعها ، كَانت أنيقة جداً و بسيطة أيضاً ، لقد أعجبتني هذهِ الدعوة المُفاجأة :

ـ حسناً سوفَ آتي إليكِ فوراً ..

أخذتُ كلبي و خرجتُ من شقتي إلى شقتها كان البابُ مفتوحاً ينتظرني ، رائحة رائعة تحبو من كل مكان و شقة جميلة بسيطة و متواضعة و مكتبة جميلة أيضاً ، و النباتات في كُلِ مكان ، إنهُ مكان فيه كثير من الطاقة و الحيوية ، رحبت بي كأنها تعرفنُي من زمن طويل ، و عانقتني بطريقة رقيقة جداً ، شعرتُ بالراحة ، كدتُ أبكي ، كان إحساساً جذاباً أخاذاً ، و كانت رائحتها طيبة جداً ، ما هذهِ الأُنثى ! ..

هل السماء تعلم بأنَني فارغة و أرسلت لي هذهِ الجارة الرَائِعة ، و كيف هذا التعارُف السريع ، مسحت على رأسِ كلبي و أخذت تضمهُ بطريقة مُذهلة جداً ، بين بلكوني و

بلكونها لوح زُجاج و لكن الفرق ليس بلوح الزُجاج و إنما بالحياة و الانتعاش ، جلستُ على الطاولة كان كُل شيء مُرتباً أنيقاً مُهندساً بطريقة مُذهلة ، لا أعرف ما هُو الطبق الرئيسي ، كان في الفُرن تَحت درجة الانتظار ، أحضرت الطبق من الفُرن ، كانت بطة محشوة بالأرُز ، منظر مُذهل جداً ، مع غُروب الشمس مع هذه النباتات الرائعة مع المنظر المُطل على بُرج إيفل مع صوت المُوسيقى الذي يصدُر من أحد محطاتِ الراديو الكلاسيكية ، شعرتُ بأن الزمن توقف هُنا ، عند المكان و الزمان و الرائحة ..

ـ سوفَ أضع لكِ الأرز مع قطعة من البط مع السلطة ما رأيكِ !! ..

ابتسمتُ على هذا الترحيب و التبجيل :

ـ نعم لكِ ذلك ، يبدو شهياً جداً ، و رائحتهُ لا تُقاوم ، أشعُر بالخجل منكِ حقاً ..

كانت تُمسكُ بالسكين الطويل تحاول تقطيع أحد أطرافِ البطة :

ـ بكلِ سُرور عزيزتي شارلوت ، كُنتُ أتوقع أنكِ سوف تتناولين العشاء معي فأحببتُ أن أُفاجئكِ

كان البُخَار يصدُر من قطعة البط التي وُضعت أمامي و المُقبلات الشهية :

ـ هذا لطفاً منكِ عزيزتي خديجة ، في الواقع اسمكِ صعب جداً و أنتِ لطيفة جِداً ، لا أَعرفُ كيفَ سوف أرد لكِ هذا المعروف !! ..

شعرتُ بأنني سَوف أبكي ، و شعرتُ بأنها شعرت بي :

ـ لا عليكِ عزيزتي شارلوت ، نَحنُ أخوات و هذا منزلكِ ، و أي شيء تُريدينهُ أنا هُنا أُخت لكِ ، و أما مسرورة بصداقتكِ صدقيني ..

كانت باريس جميلة ليلتها ، نقية بنسيمها العليل ، رقيقة بالهدوء الذي خيم على الصمت و الكلمات و العبارات ..

هبطت من العين دمعة ، دمعة عالقة منذُ ثمان سنوات ، كُنتُ بحاجة لأن تسقط ، كانت كدُملة في الحلق تمنعُ الهواء من الدُخول إلى صدري ..

أصرت على الهُبوط ..

هبطت رُغماً عني ، كُنتُ محبوسة بها من الهواءِ الطلقِ ، من السير حَافية ، من النوم عارية ، من الجري لاهثة ..

كانت دمعة مُثقلة كهذهِ المجرة ، عشتُ معها لحظات قاتلة ، سلبتني النوم و الراحة و الأمان و الدفء ، جعلتني أتقلب كما تشتهي حتى أبكتني و أدمتني ..

استمتعتُ جداً ليلتها ، كان هاتفي يرن ، و كُنتُ أرفُض الخُروج من عند خديجة ، لا أُريد قضاء هذهِ الليلة خارج المنزل ، شعرتُ بأنني وجدتُ صديقة صادقة طيبة ..

لم يكن لدي صديق سوى كلبي ، رُبما الناس تبتعد عني بسبب عملي في الجانب الجنسي ، و لكن أيضاً أنا عارضة أزياء ، و مع كل هذه الكوارث التي ظلمتُ بها نفسي إلا أنني صارحتُ خديجة و أخبرتُها عن كُل شيء ، هُناك في الجوف صدى يقول لي بأن أعترف لها ، و اعترفتُ بكُلِ شَيء ، كُنتُ أتوقع من خديجة أن تَتغير معي ، أو تتبدل

ملامحها أضعف الإيمان ، إلا أنها اتسع وجهها نُوراً و انشراحَاً ..

كُنتُ أتحدثُ معها بأدق التفاصيل ، لقد كرهتُ حياتي و أحاول أن أذهب إلى طبيب نفسي و لكن كُنتُ مُقتنعة بأن لا فائدة سيفعلها لي الطبيب ، فكرتُ بالانتحار ملياً ، و لكن حلت بجانبي جارة عرفتُ معها معنى الحياة ..

زادت صداقتنا كثيراً ، كُنا نذهبُ معاً إلى السُوق و ناكُل و نشربُ معاً ، كُنتُ أنتظرها كُل مساء لكي نجلس و نتحدث و نُشاهد الأفلام ، لقد تركتُ الأسَرة بعد أن عرفتُ خديجة ، و لكن بقيتُ أعمل في عرضِ الأزياء ..

كانت مُسلمة و كُنت قد أخذتُ عن المُسلمين صورة سيئة ، و لكن إنها من كوكب النُور الذي حدثتني عنهُ ذات مَساء حيثُ قالت :

نحنُ لا نحزن و إذا حزنا نعلم بأن هُناك أجر سوف يُحاسبنا عنهُ اللهُ يوم القِيامة ، و الله هُو الحُب الذي نعبدهُ بهِ ، فبالحُب نعيش و بالحُب نحيى و بالحُب نُبعث إلى جنة عرضُها السماوات و الأرض التي أُعدت للمُتقين ، و الله علمنا الحكمة في كُل شَيء و حفظ الحُقوق و صون

الأعراض و احترام الجيران و عيادة المَريض و بر الوالدين و إطعام الفُقراء و المساكين و نُصرة الملهوف و المظلوم و المسكين ، و عمل الخير و إقامة الصلاة و إيتاء الزَكاة و صوم رمضان و حج بيت الله الحرام من استطاع اليه سبيلاً ..

كُنت مُتعجبة كيف يُطيقون كل هذهِ الواجبات في دِينهم ، و كُنت أسألها دائماً عن دينهم و تُجيبني بكل أريحية من غير تكلف و لا تصنُع ، و مضت بنا الأيام ما يُقارب شهرين على هذهِ الوتيرة حتى جاء ما يُسمى شهر رمضَان ..

لقد تعجبت جداً عندما سمعت بأن خديجة سوف تمتنع عن الطعام و الشراب شهر كامل ، و لكن الإجابة كانت جاهزة حيثُ فسرت ذلكَ بأنَ الله يُريد أن نتركَ هذهِ الملذات شهر كامل لأن هذا الشهر أُنزل فيهِ القُرآن و أن نشعُر بغيرنا من فُقراء و مساكين ..

أعجبني الجواب قررتُ أن أمتنع معها عن الطعام ، وافقت على عرضي و سُرت جداً ، كان اليوم الأول شاق جداً كدتُ أن أشرب الماء و لكن وعدتُ خديجة أن أمتنع عن الطعام و الشراب و فعلت ، لقد غابت الشمس كانت الأطباقُ شهية

جداً ، كانت خديجة طباخة ماهرة و طعامها لذيذ حتى تعلمتُ منها بعض الأطباق السهلة كالسلطات و غيرها من الشُوربات .. كان المذياع يُعطي لحناً غريباً أغمضتُ عيني شعرتُ بالهُدوء ، كانت كلمات تُغنى باللغة العربية فيها من الروحانية الرائعة ما يُلفتُ الانتباه و يجذب الرُوح و يشُد القلب .. كانت لحظات رائعة ننتظر فيها وقت تناول الطعام ، توقف الغناء فجأة و رُفع صوت شهي جَميل :

اللهُ أكبر اللهُ أكبر

أشهدُ أن لا إله إلا الله

أشهدُ أن مُحمداً رسول الله

حي على الصلاة حَي على الفلاح

الله أكبر الله أكبر

لا إله إلا الله ..

أغمضتُ عيني و حلقت ندبات القشعريرة تسري إلى السماء حيثُ اللا مكان ، فأنا لستُ أنا داخل كومة الضباب ، أبخرة تمسكُ بيدي و تسحبني من ذاتي حيثُ الصُعود الرحب ..

أصواتٌ نُورانية تهمُس لي :

تعَالي .. تعالي .. تعالي ..

إلى القيامة إلى السماء ، أمسكتني مُجسمات نورانية و طوتني تحت مياه رمالُها التبر الأبيض و مياهُها سلسبيل من الماس المُحلى ، و راحَ الجميعُ يغسلني و يفركني من كُلِ منافذ جسدي حتى عمَّ المَاء جميع جسدي ، كانت ملكة من نُور تأمرُ الخطايا أن تخرج من جسدي : هيا أُخرجي أيتُها الخطايا أُخرجي و أخرجي أسوأ ما لديكِ و ما بَكِ ..

كانت الشمسُ غائبة و النُور يتلألأُ في كُل مكان حتى الهواء الرطب الذي تَتخللهُ الراحة مُشبع برائحة الزعفران مع الزنبق الجبلي ..

ـ شارلوت !! ..

ـ نعم !! ..

ـ لقد حان موعد الطعام ، تفضلي هذهِ التمرات مع كأس اللبن ..

أفقتُ من تلكَ النقلة التي صعدتُ بها إلى السماء ، إلى عالم النُور الذي أول مرة أُشاهِدهُ ، أشياء لمستها بأصابعي و لمستني بكفها و غسلتني بأنوارها ..

كان طعام التمر لذيذاً ، أول مرة آكلهُ و أشرب بعدهُ اللبن ، ما أجملها من نفحات ، أُريد أن أعرف أكثر عن خديجة و سر السعادة الذي تعيشُها هذهِ الأنثى ..

بعد الانتهاء من الطعام الشهي و تنظيف الأطباق و ترتيب المكان قامت خديجة إلى الحمام و غسلت أعضاءها و وضعت سجادة جميلة على الأرض و قالت لي :

ـ أُعذريني عزيزتي شارلوت أُريد أن أُصلي صلاة الغُروب..

ـ لا عليكِ عزيزتي خديجة خُذي وقتكِ ..

ارتدت غطاء كاملاً من أعلى رأسها إلى أخمصِ قدمهَا كانَ لونهُ أبيض بلون النقاء ، كانت خديجة جميلة جداً تقفُ

باتزان و تتحركُ بروية و هُدوء و صفاء خارق لا أحد يعرفهُ إلا من شاهدهُ عن قُرب أو تمتع بهِ ، كانت عندي كثير من الاستفسارات و لكن كُنتُ مُترددة ، عشر دقائق و انتهت خديجة من صلاتها :

ـ أنا آسف تأخرتُ عليكِ ..

ـ لا عليكِ عزيزتي ، كانت هذهِ الحركات رائعة جداً ، و أنا في الحقيقة أول مرة أُشاهدكِ تفعلين هذهِ الحركات ..

ابتسمت خديجة :

ـ هذهِ هي الصلاة يا شارلوت ، إنها راحة للجسد و الروح ، و هي الواجب لدى المُسلمين الذي يجبُ عليهم تأديته ، فأنا لا أعلم كيف شُعور المُؤمن من غير صلاة ، و لكن لم أترُكها منذُ أن كان عُمري عشرة سنوات ، فلقد علمتني أمي هذهِ الحركات ، نعم كُنتُ أعتقد بأنها حركات فقط ، و لكن بعد ذلك عرفتُ بأنها الصلة بين العبد و الرب ..

ـ هل تفعلونها بشكل يومي ! ..

ـ نعم كل يوم نقفُ بين يدي الله خمس مرات ، نصلي له و نشكره على هذه النعمة التي وهبنا إياها ألا و هي نعمة الإيمَان ..

ـ حقاً هذا شيء جميل ، و لكن قَبل الطعام بخمس دقائق سمعتُ أحدهم يُغني باللغُة العربية ، ما هذه الأغاني بالضبط؟؟ ..

ها ها ها ..

ـ آسفة ، و لكن هذا القُرآن ..

ـ حَقاً ، و مَا هَذا القُرآن !؟ ..

ـ إنهُ كَلام الله الذي أمر به عبادهُ بسَماعه و قراءته و تَطبيق أَوامرهُ و نَواهيه ، إنهُ كَلامُ الله المُقدس الذي نَزل على النبي مُحمد ، هُوَ رَسول الإنسَانية الذي لا يُفرقُ بين أحد إلا بالتقوى و الإيمَان ، ففي الإسَلام لا فَرق بَين عَربي أو عجمي أو أبيض أو أسود إلا بمحبة الله و تَقواهُ ..

ـ هَل تسَمعُونهُ فقط قَبل تَناول الطَعام الذي تَغيب به الشَمس!؟ ..

ـ لا أبداً نَحنُ مَأمورونَ بأن نقرأهُ و نستمع إليه و نَنَصُت آناء الليل و أطراف النَهار !! ..

ـ و لكن يا خَديجة أول مرة أسَتمع إليه في مَنزلكِ !! ..

ـ نَعم هَذا صَحيح ، أنَا كُل يَوم أضَع القُرآن و أسَتمع إليه و أقرأهُ ، في الكتاب أو أضَع السَماعات في أذُني من أجل أن لا أزعج أحد ..

ـ و لكنهُ صَوت رَائع و باعث للراحة النَفسية ، و هُو غَير مُزعج أبداً ..

ـ نعم هَذا صَحيح و لكن نَحنُ مَأمورونَ بأن نحترم الجيران و نَصون رَاحتهم لأنها من تعاليم القُرآن ..

ـ كم هَذا الكَلام جميل ، هَل أستَطيع أن أستمع إليه مَرة أُخرى ؟؟

ـ بالتَأكيد ، انتظري قَليلاً سَوف أُحضرُ لكِ التَابلت من أجل أن نَستمع معاً عَبر السَماعات من أجل أن لا نُزعج الجيران..

ـ حَسناً ..

جَلست خَديجة بجانبي على الأريكة و وضَعت السَماعات في أُذني و أرتفع الصَوت عالياً ، اهتزَ جَسَدي و تناثَر النُور في قلبي و أينعَت السَماء ببريق النجوم ..

كَانت لَحظَات مُشَبعة بالروحَانية شَعرتُ بأنهَا هَذه الحَلقة المَفقودة التي أبَحثُ عنها ، و عادت مُجسَمات النُور تُمارسُ

مَعي رياضة التنظيف من تَعبي و شَقاء قلبي ، كَانت تَسير عَقارب السَاعة من غَير أية وَسيلة ، الوَسيلة الوَحيدة هي الرَاحة الأبدَية التي أُريدهُا من هَذا العَالم ألا و هُوَ عَالم الإيمَان ، إذاً إنهُ الله ..

سَاعة كَاملة و أنَا أسَتمع إلى القُرآن الكَريم ..

كَان شَيء جَميل جداً ، لَذيذ ، لا أُريد أن أترُك الاسَتماع إليه أبداً ، إلا إن خديجة كَانت تَعمل في المَطبخ شيئاً لذيذاً ..

جَاءت مَلكة الإيمَان تَحملُ صحنين بَيدهَا ..

ـ إنهَا حَلوى رَمضان ، أُريدكِ أن تتذوقي مع الشَاي بالنَعناع ، هَذا الطَبق كَانت أمي تُعدهُ كُل رَمَضان .

نَفحَات ..

تَعصفُ بَينَ كُل ثَانية و ثَانية ..

أجواء عَالية في الروحانية التي تَتَطايرُ هُنَا و هُنَاك ..

أخَرجَت خَديجة شاشة التلفاز المُسَطحة إلى البَلكونة ، و وَصلت جهَاز السي دي في التلفاز و وَضَعت الرَقص المَولوي ، كُنتُ أظنهُ فَناً ، و لكن الآن تَأكدتُ بأنهُ جُزء من التُراث الإسَلامي ..

رَاحَت الدُفوف تُضرب بالأكُف النَاعمة ، و يَرتَفع صَوتُ النَاي شَيئاً فَشَيئاً ، و سَرت في لَحظة الوَجد قَشعريرة تَسري تَحتَ شَراشف الجلد ، كَانت لَمحة من الروحانية تَفوق الخَيال ، رَاحت الرُؤوس تَتَمايل و الأعنَاق تَتَقاذَف و القُلوب تُحَلقُ و تُحَلق ، و مَا أدراكَ بأهَل الوَجد مَا حَلَ بهم ، رَاح الرجَال الذين يَلبَسونَ البَياض يَدورون في مَكَانهم و يَدورون و يَدورونَ مع ضَرب الدُفوف و أنين النَاي مَا يُقَارب أربعين دَقيقة حَتى طَافَت الأرَواح فَوق ذَاك المَسَاء..

دَائماً أنَا التي أعَيشُ بتَخبط دَاخلي ، و لا مَرة فَكرت أَن أتَخذَ قَراراً رُبمَا يُفاجئُ الجَميع و خُصوصاً على المَستَوى

الفَني و المُستَوى الاجَتماعي ، مَاذا سَأفعَل و مَاذا سَوف أُغَير و إلى أينَ سَوفَ أمَضي يا تُرى !! ..

تَخبُطَات دَاخلية لا أَعلم إلى أينَ سَوفَ تَقودني ، و لكَن لَيس عندي الجُرأة في اتَخاذ مثل هَذه القَرارات الحَاسمة التي رُبمَا سَوفَ أُغَير فيهَا مضمار حَياتي ..

يَجب أن أَذهب إلى مَنزلي و أَخلو بنفسي و أَعود غَداً إما مع قَلبي إمَا ضد قَلبي ..

ـ حَسناً عَزيزتي خَديجة شُكراً جَزيلاً لك على هَذه اللَحظة الرَائعة أنَا مُمتنة لك جداً و لَقد شَعرتُ بالسَعادة في هذا اليَوم ، لا بُدَ لك من الرَاحة ..

ابتَسَمت تلكَ المَلكة :

ـ لا أبداً عَزيزتي شارلوت أنَا التي سَعيدة بُوجودك ، هَذه الحَياة لا تَصلح أن نَعيشَ بهَا وَحدنَا يَجب أن نُحبَ بَعضَنا البَعض و أن نَتعايش كَي نَستمر ..

كَلامُهَا دَائماً جَميل و بَاعث للحُب و السَلام :

ـ كَم أنت رَائعة يا خَديجة !! ..

كَانَ العنَاق سَيد المَوقف ، كَانت هُنَاك رَاحة طَاغية على المَكَان و الزَمان ، وددتُ بأنَ الزَمن لا يَتوقف ، لكي نَجلسَ

مَعاً على ضفتي الوَقت نُخرج جراحنَا و آهَاتنَا و نَستلقي على رَاحة الوَحي الطَاهر و لنُشفى من شَقاء الأيَام الآفلة السَوداء ..

أُطبق البَابُ على ذَاكَ النُور ، و مَشيتُ وَحدي في ظُلمة الكريدور حتى وَصَلت إلى بَاب مَنزلي ، كَانَ كَلبي مَعي يلهث ، كَانَ مُنتَفخاً من الطَعام الذي تَنَاولهُ و مَتعباً من اللُطف الذي حَظى به من خَديجة ، فَتحتُ بَاب المَنزل كَانَ كُل شَيء مُظلماً كَقلبي المُظلم ، كَان صَوت السَاعَة وَحدهُ من يَدُق كَأنمَا القيامة قَد حَلت على هَذا المَكَان ، ألَقيتُ بنَفسي على الأريكة التي تُواجهُ البلكونة و قَفز كَلبي بجَانبي .. كُنتُ أُراقبُ القَمر كَيفَ يَسير كَيفَ يُضَيء انكسَارهُ و النُجومُ حَولهُ تَضَحكُ لي و النَسيم كَيفَ يَسير فَوقَ جَسدي ، كُنتُ أُفكرُ بخَديجة كَيف تغَارُ على جَسدهَا ، و لا تُظهر منهُ شَيء سوى وَجههَا و كَفيهَا ، إنهَا النَقية الطَاهرة في قَلبهَا و جَسدهَا ، لا تَحتَاجُ للأصبغة و المَساحيق لتُظهر جَمَالهَا ، فَالجَميلُ جَميل بَقلبه و نَقاء صَدره ، و صَفاء ذَهنه ، و مَحبته للنَاس جَميعاً ..

كَان الوَقتُ يَمشي على حَسب الأَفكَار التي تُطَاردني ، و كُل دَقيقة تَخلعُ رداءهَا عن كَتفهَا و تَلفُني و تَحتضَنني أكثر و أَكثر ، الصَمتُ يَجتاح الزَوايا و الظَلام و نُور القَمر الخَفيف و لمَعان النُجوم المُتَرسة على أَسوار السَماء و المَجرة تَحاولُ أن تُغَير مَجرى دَورانهَا و لكَن لا مَحالة ، الكَلبُ غَارقُ بالنوم و عَينُ الله لم تنم ، و لا حَتى أنَا ، لا أَعلم مَا هُوَ أهوَ قَلق أم أَرق أو خَوف أو فَرح ، إنَها السَاعة الرَابعة قَبل الفَجر بسَاعة ، أُشعل الضَوء في شقَة خَديجة ، صَوتُ صَادرٌ من البَلكونة للشقة ، إنهُ الغناء ذَاته الذي سَمعتهُ آنفاً ، يُقَال إنهُ القُرآن ..

صَوت يُسَيطر على اللهفة و اللحظة و المكَان و الزَمان ، لا يُفلت من قَلب دَخلهُ ، لا يَدع فُؤاد تَحرش به ، لا يُطلقُ عَقل أنصَتَ لهُ ، يَتَربعُ في مَمَرات الرُوح ، يُصدرُ صَدى في النُفوس المتعبة ، يُحَييهَا من جَديد ، كَأن كَلمَاتهَا سَحابة خَير مَاطرة ، تُحيي مَن أَرواحهم تَعبت من المَسافات و من الوَقت و من ضيق الصُدور ، كَأنهَا ألسَنة من نُور تَقتَحم النَوافذ و الأَبواب المُترسة بالشَياطين ، تطَرُد التَعب و الإرهَاق و النَصب ، و تَفرشُ للذَات سَريراً من وَهج لامع ،

صَوتٌ من السَماء يَقولُ لي استَريحي اسَتريحي استَريحي آنستي ..

نَحنُ قديسو السمَاء ، أتينا بهَذا الكَلام من رَب الأرض و السَماوات ، كَي نُخَلصك من هَذه الغَصَة المُنَحسرة في الحلقوم ..

تَنَفسي أُكسجين الخَلاص ، الخَلاص من الذَنب من العَيب من التَعب من الصَخب من الغُموم من الهُموم ..

ثَلاثون دَقيقة من الإنصات لصَوت الله الذي يَعبرُ رَاديو جَارتي خَديجة ، كَان صَوت قَرقَعة أطباق مَصحوبة بصوت الله مع صَوت شَخير كَلبي الذي أتعَبهُ الطعام بل الذي التَهمهُ لَيلَة أمس ..

دَرامَا باريسية في لَيلَة مسَكونة بمعارك مع الذَات ، أنَا هيَ الحَبل السَري الذي أُشَدُ بَين أيادي مَلائكة الله و شَياطَين اللذة ، و أصوات الكُومبارس الغَير مَرئيين تَقول لي اختاري إمَّا خَديجة إمَّا أنت ..

لَقد سَمعتُ لنفسي ثَمان سَنوات و أردت بي إلى الضَياع ، و قَد جَاء النُور على غَير ميعاد ، نُور على شَاكلة أُنثى تُدعى : خَديجة ..

شَيء يَقول لَي ..

إما الحَق إمَا البَاطل ..

أينَ هوَ ذَاكَ الحَق الذي أرتجيه و أَبحثُ عنهُ !

إنهُ القَلب كَفَرس جَموح بَري ، لا تُحَبُ أن يَركبهَا و يَروضهَا سوَى فَارساً شَهماً لا تُرديه المنَايا ..

أنت بَينَ حَلَين إذاً يَا أنَت ..

كُنتُ أعتقد بأنَ هَؤلاء المُسلمون دَمويين إلى دَرجَة عَدم تَقبل الطَرف الآخَر ، و لكن اليوم و بَعد التَجرُبة التي عشتُهَا مع جَارتي التي لم أرَ منهَا سوى الخَير و الحُب ، بدَأتُ أُغَيرُ رَأيي ، أَحببتُ أن يَطلع النَهار كَي أتَحدث مع خَديجة ببعض الأُمور ، و لكن النُعَاس أخذني إلى وَاد غَير ذي ضَوء ، كَانَ النُعَاس مُشبعاً بالدُخَان ، إنهُ دُخَان طَيب الرَاح زَكي الرَائحة ، دُخَان يُقالُ عنهُ بَخور ، يتأجَج من مَكَان بَعيد جداً ، كُنتُ عَارية تمَاماً لا أرتدي شَيئاً ، أَمشي بخَفة و قَلبي يَتلعلع خَوفاً و رُعباً ، لم أُشَاهد هَذا المَكان من قَبل ، بتُ أَسأل نَفسي لمَا أنَا هُنَا و أينَ هَذا المكَان !! ..

إنهَا وَحدها الأمكنة من تُحَددُ مَصيرك ، فَإما من أصَحاب اليمين أو من أصَحاب اليَسار ، كَان دَائماً اليسَار هُوَ الاتجَاه

الفَكري الذي يُدَافع عن الحُرية ، و هَا هُوَ اليَوم يَكونُ يسَاراً يمينياً مُتَطرفاً و أنَا لا أعَلم ، فَقد كَانت تَقول لَي خَديجة إنَ الله يُحبُ اليَمين في كُل شَيء و هَذا مَا جَاء في كتَاب الله و في سيرة نَبيهم مُحمد رَسول الله ..

رُبمَا انقلبت الموازين هُنَا ، و البُخَارُ يَتَصاعد بَينَ كَومة النُور و لكن كُنتُ أمشي على جمر أَحمر ، و الذي أَرَعبني بأَنَني أَمشي و لا أَشعُر بحَرارة الجَمر و لا بأَلمه أَبداً ، كَان صَوت خَديجة يَظهرُ لي كُلمَا تَقدمتُ بالمَشي نَحوَ الخَلاص ، كُنتَ أَدفعُ ما تَبقى من سني رهَاناً على أن أعرفَ هَذا الخَراب الذي يَتوسَط النُور و البُخَار ..

كَان صَوت خَديجة يَقول لي :

اقتَربي .. تَعالي .. لا تَخافي ..

كُنتُ أشعُر بالحَياء لأَنَني جَرداء من كُل شَيء و حَتى من خفة الهَواء ، كَانَ الضَغطُ مُسَيطراً على كُل خطوة ، أَمشي بسَطوة و تَروي ، كَأنني لا أُريد أَن أُوقظ هَذا النُور ، كُلمَا تَقدمتُ كُلما زَادت حدة التنور و الحَرارة ، شَعرتُ بشَيء سَقط من جَسدي ، فَإذا بي اسَتيقظت من نَومي ..

كَانت الشَمسُ سَاطعة قد دَخلت إلى صَالة البَيت ، و كَلبي بجانبي مُسَتيقظ يُريد الخُروج كَي يُخرج الفَضلات من أَمعائه ، إذاً إنهُ كَابوس يَلفُ حَولي ..

غَسَلتُ وَجهي الذي أفَرغتهُ من المَساحيق ، و ارتَديتُ بجامة الريَاضة و نَزلتُ مع كَلبي إلى الحَديقة التي خَلفَ المَبني الذي أَعيشُ به ..

أول مَرة منذُ ثَمَان سَنوات أخرجُ إلى الحَديقة بلا مَسَاحيق على وَجهي ، شَعرتُ بأنهَا بدَاية انعتَاق من أَيّ شَيء تَرتَبط به الأُنثَى كَالزينة و المَساحيق و الفَسَاتين الخَليعة و غَيرهَا من إبراز للأُنوثة ..

جَميلة أنت لأَنك تَثقينَ بنفسك .. نَعم جَميلة إلى مُنَعطَف الكَمَال ، و هَذا الجَمَال إنَ جُعلَ في غَير مَكَانه فَسوفَ تَخسرينَ ذَاتك و عَقلك و حَتى قَلبك ، فهُنَاك غَبيات ضَاعَ فَيهنَ مَا ضَاع بسَبب الغُرور ، و من أَجل من !؟ ، من أَجل رجَال أشَدُ غَباء من هَؤلاء الفَتَيات ..

كنت أَشعر بأن الشَمس تُضَاحكُ بَشرتي المُتَرامي عليهَا الجلد ، و كُنتُ سَعيدة جداً ، لعدة أسباب ..

أَولهَا : بأنَني لم أَعُد ألتقي بالرجَال ، و ثَانيها بَسبب صَديقة جَميلة و جَديدة بجَانب منَزلي ، و ثالثها لم أَعُد أَهتم بهَذه الَرسميات التي تَتَبعُهَا الأُنثى في كُل دَخُول و خُروج ..

أُريد أَن أَسأل نَفسي بشَكل قَوي ، و لكن هُنَاكَ خَوف رَهيب جداً في دَاخلي ، لم أَكُن أُصَارحُ نَفسي أَبداً ، و هَا أَنا اليَوم على مَشَارف الذَات بينَ كَر و فَر من نَفسي ..

هَل أَنت رَاضية بمَا تَفعلينهُ يا بنت !! ..

لا أبداً يَا أَيتُهَا النَفس ..

إذاً مَا هيَ الخطَة التي سَوفَ تَتبعينهَا ..

سَوف أَسأل خَديجة ، إنهَا مَاهرة بكُل شَيء ، و لا أَظُنُ بأنهَا سَتبخلُ عَليَّ بالنَصيحة ..

حَسناً مُوفقة ..

عُدتُ إلى البَيت كَالذي يُجَهزُ نَفسهُ للذَهاب إلى الطَبيب ، كُنتُ أُراقبُ البَوابة من البَلكون بَينَ الحَين و الآخر ، كُنتُ أَنتَظرُهَا حَتى تَأتي ، أَين أَنت يَا خَديجة ! ، هَيَا تَعَالي أَرجُوك ..

السَاعة الثَالثَة ظُهَراً ، شَعرتُ بأنَني فَقدتُ الأمل ، و لَكن سَمعتُ بَابهَا يُفتح ، نَعم إنهَا هَي جَاءت ..

فَتحتُ البَاب بسُرعة ..

كَانت عند الباب ..

ـ مَرحباً عَزيزتي خَديجة ..

ابتَسمت ، مَا أجملها عندما تَبتَسم ، كَانت نَقية يَتَصببُ منهَا العَرق من بَينَ حَواف حجَابهَا ، و كَانت تَحملُ بَعضَ الأَكياس في يَدها ، رُبمَا هيَ بَعض الخُضَار و اللحُوم و أربعة كُتب في كيس كَبير ..

أسرعتُ لمُسَاعدتهَا ..

ـ و عَليكُم السَلام عَزيزَتي شارلوت ، شُكراً لك لأنَك سَاعدتني ..

ـ بكل سُرور ، صَدقيني كُنتُ أنتَظرك ملياً ..

إنهُ ثاني يَوم في رَمَضان ..

لَقد قَرأتُ عن رَمَضان في الصُحف الإلكترونية ..

نَفحَات تَهبُ على المُسلمين في ذاكَ الشَهر الكَريم ، و قَد قَرأتُ بأنَ في هَذا الشَهر أُنزل فيه القُرآن على نَبيهم مُحمد ، و هُنَاك طَرف يَميني مُتَطرف يَسعَى لإشَاعة البَلبَلة بَينَ صُفوف المُسلمين و تَفريق وَحدتهم و تَشتيت كَلمَتهم ، و هُنَاكَ أَطَراف مُتَعصَبة وُجودها هُنَا من أَجل أَن يكره النَاس هَذا الدين ، و هُنَاكَ طَرف مُنَحل مَائع مُميع يُريد تَشويه مَعَالم هَذا الدَين ، و هُنَاكَ طَرف غَير آبه يَسعى لتحصيل لُقمة العَيش لأنَ الدَين لا يُشبعُ البُطون و هَلُمَ جَرا ..

كَانت خَديجة مُرهَقة منَ الامتنَاع عن الطَعام و الشَراب بحُجة الصَيام و الوقوف عندَ أَوامر الله ، و كَان لدَي سُؤال ، هَل الرَب بحَاجة إلى كُل هَذا العنَاء كَي نَحظى برضَاه !! صيام و قيام و صَلاة و حجَاب و أشَياء أُخرى لا أَعرف مَدى صحتهَا ، أشَياء لا بُد أن يكون لهَا حل ، إلا هَؤلاء القسم المُسلم من البَشَر لَيسَ بعُقلاء بل من صنف المَجانين ، نَعم إنهم مَجانين و لكن لَديهم رَاحة دَاخلية لم أَجدهَا عند أَحد من العَالمين ..

أَرخَت خَديجة سَتَائر مَنزلهَا بَسرُعة و أشعلت المُكَيف حَيثُ تَخلل الهَواء الرطب البَارد من خَلاياه بَهمس و بلمس عَالي الجودة ، أول مَرة تَخلع هَذا الغطَاء من رَأسهَا ، يا إَلهي مَا أَجمل شَعرهَا ، لَقد كَان مَعقوداً بمطَاط مُهترئ ، و لكَن كَان قَلبهُا نَظيفاً مُعَقماً يَتلعلعُ نُوراً و جَمالاً ، و أسدلت شَعرهَا على كَتفيهَا ، كَانَ طويلاً أَنيقاً مُسَترسلاً للحُب و الجمَال ، لم يَكن بحَاجة إلى كوافير أو إلى أَصبغة أو كريمات أو مُعطرات أو مَا شَابه ..

تَعجبتُ من أَمرهَا كَيف لأُنثَى عندهَا هَذا الجمَال كُله و تمنعُه عن الآخرين ! ، هَل هيَ عَقيدة في قُلوبهم و قَوانين واجبة و مُفروض عَليهم و الوقوف عندَ حُدودهَا !! ..

أَلقت بجسَدهَا الذي لا يَحتاجُ إلى رياضة أو حَلقات لَياقة ، كَانَ جسداً مُستقيماً تَماماً ، بنَهدين مُتَوسطَين الحَجم ، و عُنُقاً تَحجُ إليه شَهوات الرجَال من شَرق الأَرض إلى غَربهَا ..

قُمتُ محاولة جَلبَ كَأس من المَاء ، و لَكن عَرفتُ بَعدَ ذَلكَ بأنهَا صَائمة ، نَظَرتُ إلى السَاعة أُريد التَخفيف عنهَا :

ـ عَزيزتي خَديجة مُتَبقي من الوَقت أربع سَاعات على غُروب الشَمس ، تَحملي ..

ابتَسمت ، و لكنَ الإرهَاق قَد ظَهر على وَجهِهَا :

ـ شُكراً على هَذه المُجاملة اللطيفة ، نَعم سَوف أتَحمل ، فَهذا لَيسَ أَول شَهر أَصوم و أمتنع عن الطَعام و الشَراب ..

تَعجبتُ لأَمرهَا :

ـ هَل هنَاك غَير رَمَضان لتَصوميه ! ..

كَانت المَسكينة مُنهَكة من التَعب :

ـ نَعم هُنَاك أَيام فَضيلة و جَليلة أَصومهَا غَير رَمَضان ، كَيوم الإثنين و الخَميس و ثَلاثة أَيام البيضَاء في مُنتَصف كُل شَهر هجري و يَوم عَرفة و عَشرة ذي الحجة و غَيرهَا..

شَهقتُ من هَذا الجُنون شَهقة حَتى لاحَظت علي بَأنَني صُدمتُ :

ـ كُل هَذا تَفعلينهُ ، ألم تَملي يا عَزيزتي ! ..

ـ لا أَبداً ، كُل هَذه الأَشَياء عَليهَا أجر عَظيم من الله تَعَالى ، و على قَدر المَشَقة نَتَلقى الخَير و البَركة من الله قَبل الموت و بعدهُ ..

ـ و هَل هُنَاك حَياة بَعد هَذه الحَياة باعتقادك ! ..

مَسَحت بَقايا العَرق المُتَصبب من جَبينهَا :

ـ نعم ، هُنَاكَ جَنة عَرضهُا السَماوات و الأَرض أُعدت للمُتَقين ، و هُنَاكَ جَحيم مُقيم لمن خَرج عن دَين الله ، و هُنَاك فَترة مُؤقتة للعُصَاة إن في الجَحيم حَتى تَنتهي صَلاحية إقامتهم على حَسَب معاصَيهم ، و هُنَاك دَرجَات للجنان يُنعم بهَا أَهل الجنَان كُلاً على حَسَب أَعماله ..

ـ و هَل الربُ بحَاجة إلى كُل هَذه المشَقات حَتى يَرضَى عن عَباده !! ..

ـ إنَ لله حكمة في وُجودنَا ، و لكن يَجب أن تَعلمي أنَ الله غَفور رَحيم ، و لا يُحاسبُنَا بأعمَالنَا بَل بفضله و رَحمته ، و نعتقد بأنَ رَحمةَ الله وَاسعة ..

كُنتُ أستمع لهَا بجنون ، أول مَرة أستمع لهَذا الدين الذي كَان يُشَتم و يُوصَف بالوَحشية من غَير أبنَاء المُسلمين :

ـ و هَل تَعتَقدينَ بأنَك من أهَل الجَنة !! ..

ها ها ها ، ضَحكت خَديجة كَثيراً ، شَعرتُ بأنَني سَخيفة جداً:

ـ أنَا آسف لأَنَي ضَحكت ، و لكن هَذا سُؤال لا يُسَأل للبَشر ، هَذا من شَأن الخَالق ، و لكن نَحنُ نَعتقد و نَظُن بالله خَيراً ، و من ظَنَ بالله خَيراً فَخير ، و من اعتَقد بالله شَراً فَشر ..

أَردتُ أن أَسألهَا سُؤالاً كُنتُ أُحبُ أن تَسألني إياهُ :

ـ هَل أنت سَعيدة يا خَديجة !! ..

أخَذت نَفساً عَميقاً ، كَانَ نَفساً فيه رَاحَة و سَعادة :

ـ آه يا عَزيزتي شارلوت ، نَعم أَنَا سَعيدة جداً ، و كم أَتمنى أن يَعلم البَشَر قَدرَ سَعادَتي بهَا ..

كُنتُ ثَرثَارة جداً ، و رُبما مُزعجة كَثيراً :

ـ أنا آسفة على هَذه الأسئلة الكَثيرة ، و أعلم أنَني تَدخَلتُ كَثيراً بخُصوَصياتك ، و لكن كُنتُ أُريد منك أن تُهديني كتَاباً حَتى أَعرف عن دينك أكثر !!

قَامت خَديجة من مَكانهَا ..

إلى مَكتبتهَا الصَغيرة المكتوبة بلغَات عدة ..

بالفَرنسية و العَربية و الروسية ، بعناوين مُدوية لا أَفهمُ محتواهَا ، بَدأتُ أَشعُر بالرَاحة لأننا بَشَر بلا عنوان ، نَحنُ الصناديق المُقفلة بالمَاضي و الذَاكَرة ، لا عنوان لَدينَا سوى السَراب و الضَباب ..

نَحنُ بعكس الكُتب تَماماً ، تَعرف محتوى الكتَاب من عنوان الكتَاب ، و لَكن من يُريد أن يَعرف عنَاوين البَشَر يَجب أن يَتصَفحنَا و يَدخُل إلى أَحشَائنَا كَي يَصل إلى نُقطة البدَاية ، البداية التي لا يَعرفُ صَداها سوانَا ، نَحنُ جَواسيس رُغماً عن طَهارتنا و إيمَاننا بأنَنَا لا نُحبُ التَطفل على أَحد ، نَحنُ مُتَطفلون رُغماً عن أنف حياديتنَا ..

كُل من يُريد أن يَدخُل حَياتكَ كَصديق أو حَبيب أو رَفيق أو شَريك حَياة أو شَريك عَمل أو مَا شَابه يَجب عَلينَا أن نتَعلم التَحري و نُتقن هَذا العَمل كَي نَصل إلى مَاهية ما نُريد ، فَبرحلة التَجسُس نُحصَي مَا نُريد و مَا لا نُريد بحجة أنَنَا عَادلونَ في عَلمية التَجسُس ..

بتُ أسأل نَفسي لما أَنا وَصَلت مع هَذه الجَارة إلى هَذا المُنعطف من التَجسُس ، عَليهَا و على دَينها ، و على شَكلهَا ، و على أدَق تَفاصيل حَياتهَا ، أنَا عن مَاذا أَبحث بالتَحديد!!..

لَقد وَجدتُ بأنَهَا سَعيدة ، فَرحت بكُلي بصُحبتهَا كَي أُعدى من هَذه السَعادة ، نَعم لَقد وصلتني رَشَفات من السَعادة بَسبب قُربي منَها ، و لكن كَيفَ لو كانت كُلهَا في ذَات التَفكير و الجَاذبية و الانسجَام الروحَاني !؟ .

كَانت العَناوين مُثيرة جداً ، عَناوين بارزة جداً على ظَهر الكُتب مُؤطَرة و مُذَهبة خَارجَة عن مَسَارهَا المُحدد حَتى تَجذُب الأنظَار و لكن المَضمون لا أَعلمُ مَا به ، كَانت تَبحثُ عن عنوان على مَقاسي أو على مَقاس عَقلي و قَلبي ..

أَنا التي ذَهبتُ إليهَا ، لم يَأتني منهَا سوى هُدوءهَا المُباغت و خُلقهَا الرَائع و دقة الحُب الدافئ في تَعَامُلهَا معي ، شَعرتُ بشَيء غَريب لا بُدَ أن أُغَير حَياتي ، نعم لم أَعُد أذهب إلى الرجَال ، و لم أَعُد أسهر كَثيراً ، أَصَبحت دقة سَاعتي تَسير على ذَهَاب خَديجة و على إيَابهَا و غَيابهَا ..

أَخرجت كتَاباً صَغيراً :

ـ عَزيزتي شارلوت ، هَذا كتَاب بعنوان : جَدد حَياتَكَ ، و لكَن الذي كَتبهُ رَجُل عَربي اسمهُ مُحمد الغَزالي ، و أنَا أتمنى أن تَقرئيه ، إنهُ كتَاب مُتَرجم إلى الفَرنسية جَميل و رَائع جداً ..

ـ أُوه شُكراً لك عَزيزتي خَديجة ، كَم أنت رَائعة و لَطيفة ، لَقد أَتعبتُك مَعي ..

لَقد وَصَلت إلي لتُعطيني الكتَاب ، رَاحت الأَحضَانُ تَتَقارب حَتى احتَضنتني ، كَانت أَوقات جَميلة و لحَظات مُرفَهة و رَائعة جداً ..

ـ لا عَليك نَحنُ أخوات و أنَا سَعيدة بصُحَبتك ، و أَتمنى أن نتَناول طَعام رَمَضان كُلَ يَوم مَعاً ، هَل أَنت مُوَافقة !! ..

كدتُ أن أبكي ، و لَكن حَبستُ دُموعي بَينَي و بَينَ جُدران بَيتي :

ـ أَنَا مُمتنة لَك كَثيراً يا خَديجة .. حَسناً سَوفَ أَترُكك تَرتَاحين الآن ، و إذا تُريدين المُسَاعدة أَخبريني ، أو لَعلي سَوفَ آتي إليك قَبل غُروب الشَمس بَساعَتين لمُسَاعَدتك على طَعام رَمَضان ..

ـ حَسناً مُوافقة أنَا بانتظَارك ..

فُتحت الأبواب و أُغلقت بالرَاحة و الطَمأنينة ، مَا أجملهَا من أَبواب و مَا أَسعَدهَا من قُلوب ، فَرحتُ جداً بالكتَاب ، صنعتُ فُنجان من القَهوة و جَلستُ على الأَريكة أَتَجسسُ على محتوى الكتَاب ، فَتحتُ أول صَفحة أُقَلبهُ صَفحَة تلوى الأخرى كَان كتَاباً كَاملاً بالشَوق و الوَصف ، كَلمَات لا تُوصَف و أَشَياء مَخفية فيهَا من الخُلق و الأدب مَا يَجعلُك تَخلع ذَاتَك و تَمشي في رحَاب الله عَارياً من جُنون هَذا الكون بأكمله ..

مَضَى الوَقت و نَسيتُ نَفسي ، كَانت رَائحَة الطَعام تَسير و تَسير على مَهل إلى أَنَفي ، أوه لقَد وَعدتُ خَديجة أَن أُسَاعدهُا في إعداد الطَعام معاً ، أسرعتُ إليها ، فَتَحت البَاب كَانَ وَجههَا وَردياً مُبتلاً بالراحة و الإيمَان ، و كَان قَلبي نَاصعاً بالنقَاء كَأن أُمي عادتني هَذا اليَوم ، اَفكار جَديدة و سَعيدة و كَلمَات مُذَابة بالعَسَل دَخلت إلى قَلبي ، كَيف لهذه الفتَاة أن تَعرف عَناوين السَعادة و أَنا التي أبحثُ دَائماً عن الروَايات البُوليسية في المَكاتب و المَتَاجر و المَحال التي تَغُصُ في الكُتب :

ـ حَركي لَي هَذا القدر عَزيزَتي شارلوت ..

ـ حَسناً ..

كَانت تُقَطعُ الطَماطم ، تُريد أن تَصنع طَبقاً من السَلطَة :

ـ كَان كتَاباً مُمتعاً حَقاً ..

ـ عن أَي كتَاب تَتَحدثين ..

ـ عن كتَاب جَدد حَياتَك !! ..

ـ أوه لَقد نَسيت ..

ـ لا عَليك عَزيزتي ..

ـ لَقد أهَدتني إياه صَديقتي فَاطمة و أنَا أزور جَامعة الأزهر الشَريف في مصر ..

لَقد دَخلت الغيرة إلى قَلبي :

ـ و هَل تَعرفينهَا من زَمن بَعيد ! ..

ـ لا أَبداً لَقد عَرفتُهَا في الجَامعة عندمَا زُرتُ قسم العَقيدة الإسلامية في الجَامعة ، و لَكن كَان يَوماً مُمَيز لأنَني رَأيتُ كَثيراً من الدَاعيات و الأخَوات المُسَلمات في ذَاكَ المَكان ..

ـ هَل الله بحاجة إلى دُعَاة حَتى يَظهَر دينه ؟؟ ..

نَظَرت إليَّ بحَنان الأُمومة ، كُنتُ أَتَوقع بأنَ سؤالي استفزازي لهَا ، و في نَفس الوَقت لا أُريد أن أَبدأ بحَركة التَمرُد و الاستفزازية :

ـ الله لَيسَ بحَاجة إلى أَحد كَي يُظهر دينه ، فَالله جل جَلالهُ بحَاجة إلى صدق في العَمل و القول و تَكون النَوايا سَليمة 100 % ..

كُنتُ أستَمعُ إليهَا و لكأَنَني أسَتمعُ إلى شَيء آخر من طراز رَفيع في الذَوق و تَقبل الطَرف الآخر ، كَيفَ لنَا أن نَدورَ حَول نُقطة وَاحدة من غَير أَي مَلل و كَلل ! ، نَحنُ في الحَقيقة لا نَبحثُ عن الحَقيقة ، كَلا بَل نَبحثُ عن نَزعاتنَا التَي نَستَلذ عَندمَا نَرى الطَرف الآخر كَيفَ يُهَزم ، و لكن خَديجة من نَوع الإنَاث اللواتي لا يُعجبهنَ هَذه الطَريقة في النزاع ، فَالمسألة بالنسَبة لَهَا لَيست صراع بَينَ نَفس و نَفس أُخرى ، بَل من أجل إحلال السَلام في قُلوب من يَطوونَ قُلوبهم على سَارية الرَاحة و الأمَان :

ـ هَل الله مَع الضَعيف أم مَع القَوي ! ..

لم تَكُن خَديجَة مُتَعبة كَلا ، بَل كَانت مُستَمتعَة ، و كَأنهَا شَعرت بأنَ هَذه الأسئلة استفزَازية بجَدارة ، و في نَفس الوَقت قَد أعطتني عُذراً على هَذه الأسئلة المَنطقية نَوعاً مَا :

ـ الله مَع الضَعيف و القوي إن كَانوا يَمتَثلون للعَدالة و المَحبة و عَدم الظُلم ، و اللهُ عدَواً للضَعيف و القَوي إن كَانوا رَضوا بالظُلم و عَدم الامتثَال إلى الحَقيقة ..

كَانت خَديجة دَقيقة جداً في الأَجوبة ، و كُنتُ غَير مُقتَنعة بوجود آلهة في هَذا الكون ، لأنَ القوة لمن بَيده القوة كَما تَقول الحَقائق :

ـ وَ كَيف يُحصي الله مُنَاصريه !

ـ هُوَ الذي خَلقَ هَذا الكون يَعلم مَا في الأرض و مَا في السَمَاء و مَا فيهَا و ما عَليهَا ..

ـ و يَعلم الغَيب !! ..

ـ و يَعلم مَا تُخفيه الصُدور !! ..

كَانت الشَاشَات و الفَضائيات و مَواقع التَواصل الاجتماعي تَنقلُ لنَا مَا يَحدُث في الشَرق الأوسَط من دَمَار و خَراب سَببهُ أنَاس يُطلقونَ عَليهم دَاعش ، و يَنسَبونَ أَنفُسَهم للدين و للإسلام ، و لَهم مَشَاهد ضد الإنسَانية هُم خَطر على البَشرية

، و لهُم عَقائد خَاصَة بهم يَظنونَ أنهُم على حَق و غَيرهم على بَاطل ، يَحكمونَ بأهوائهم أو كَما نَزل في كتَاب الله المُقدَس الذي يُقال عنهُ القُرآن ، و يَذبحون و يَجزون الأعناق و يَسفكونَ الدمَاء و يَرجمون من يَشاؤون و يَأخذونَ مال من أَرادوا و يستولون على أَرض من أَحبوا ، لَيس عندهم قُلوب أَبداً ، فَالتَقارير عنَهُم كَثيرة و وَفيرة جداً ، لا أَعلم مَا هي الآلهة التَي يَعبدون و يَتَلقون أَوامرهُم منهَا آلهة بلون الدَم ..

لم يَأت مَشهد على التلفاز أو الشَاشَات الزَمنية للمَوت أو مَواقع التواصل الاجتماعي إلا و لهُم مَشهد مُخيف ، يَنقلونَ الذَبح و السَفك و التَنكيل و الرَجم على مَرأى النَاس عَبر تَقَارير الفَيديو و برامج اليوتيوب ، و تَتَهافت الفَضَائيات و المَواقع العَالمية لنشر أَخَبارهم للقاصي و الدَاني ..

وجوه مُخيفة أسدلَ الظَلامُ عَليهَا مَسحة من دَم ..

لحى كَثة و شُعور مُرخاه على الأَكتاف مَسدوله للسَواد ، و مَا أَقبحَهُ من سَواد ، و ثياب قَصيرة بحجة أَنهَا سُنة وَاجب عَليهم تَطبيقهَا ، و يَرتَدونَ السَواد في كُل حَالاتهم ، و

خطَاباتهم نَارية فيهَا من الوَعيد و التَهديد ما يَجعل العَالم ينَهارُ خَوفاً ..

رَاية وَاحدة فَقط تُرفَرفُ فَوقَ رُؤوسهم ، رَاية سَوداء ليسَ لهَا ثَاني كُتب عَليهَا :

لا إله إلا الله ، مُحَمد رَسول الله ..

لهُم خَلاياهُم النَائمة في كُل مَكَان من هَذا العَالم الذي وجدَ للحُب لا للحَرب ، خَدعوا شُبانَ المُسلمين و غَير المُسلمين بأنهُم هُم الأمة المنصورة ، فَتوافد عَليهم الفَشلة من الشُبان ليسدوا فَشَلهم بفَشَل أكبر منهُ في عَقلهم و قَلبهم شَيء أو شيئان :

الدَم و الجَنة !! ..

أُنَاس من كَوكَب آخَر يَظنونَ بأنَ الجَنة مَفروشَة بالدَم أَصَابهم الخزي و العَار ، كَرههم الجَميع و حَتى أهل الإسَلام يَحتقرونَهُم و يَحذرونَ منهُم ..

يُقَال خَرجوا من شبه الجَزيرة العَربية ، و من السعودية بالتَحديد التي تُورثُ الفكر الوَهَابي الذي يَتنَاقَلهُ مُحمد بن عَبد الوَهَاب أحد قَادة الثَورات التكفيرية التي تُعَلم في المَدَارس الحُكُومية و تُلقى للأَطفال ، إنهُ باب الوَلاء و

البراء و الكَراهية و العُنصُرية و إراقَة الدمَاء و إزهَاق الأرواح بغَير حَق ، فكر مُشبع بالذَبح و التنكيل و إقصَاء المرأة تَحتَ عدة مُسَميات وَاهية و غَير عَقلية و غَير مَنطقية..

تَفاهَة الأُمَم :

أَن تُصدق هَذه الجمَاعَات التي لم تُقَدم للتَاريخ سوى سَحب السُيوف و هَدم البيوت و اغتصاب النسَاء و سَرقة أموال الشُعوب تَحت مُسَميات ما أَنزل اللهُ بهَا من سُلطَان ..

سُلطَان الله هُوَ العَدل و الإنصَاف ..

و إعطاء حُقوق المَظلومين و نَشر الوَعي بَينَ الخَلق و تَحقيق أهَداف الحُرية و المُسَاواة بَينَ البَشَر و عَدم القيام على التَحريض و الكَراهية عَبر المنَابر و منصات الخطابة و إقصَاء القَوانين التي يُعتَقد أنهَا سماوية و هي في الحَقيقة دَموية ، أَية دَعوة هَذه يا تُرى ! ، و لصَالح من !؟ ، و من التَي يُمولهَا ؟ ..

أشَباح من خَلف السَراب تَسعى لإراقة الدمَاء حَتى تُباع الأَسلحة ، و تَمشي المَصَالح كَما يَرغَبُ تُجَار المَصَالح ..

نقَاط يَجب أن تُتضح للسُطور حَتى لا نَظلُم أهل العَقَائد التي تَسعى لإقامة العَدل على هَذا الكوكَب ..

نَعم إنهُ يَعلم الغَيب ..

و يَعلم مَا تُخفيه الصُدور !! ..

ـ هَل هَذا هُوَ الإسَلام يا خَديجة ..

أمسكتُ بَجوالي المَحمول ، كَانت فيه مُقتَطَفات عَبر مَواقع التَواصل الاجتماعي عَن الجَماعَات الإرهَابية التي تَعيثُ فَساداً في سُوريا و العَراق و أفغَانستَان و غَيرهَا من البُلدَان التي لَحقَ بهَا الدَمَار بسَبب رَفع رَاية تُنسَبُ للإسَلام ..

ألقت الخُضَار من يَدهَا ، و غَسَلت يَدَها بمَاء و أَتت إليَّ تَبتَسمُ ، كَانت هَادئة جداً ، ظَننتُ بأنَي سَوفَ أُمررُ لهَا دَرساً بالاستفزاز ، كَم أنَا حمقاء ، و كم هيَ لطَيفة ، كُنتُ دَائماً أَلعب دَور المُستَفزة للآخَرين ، ظَننتُ بأنَني انتَهيتُ من هَذه العَادة السَيئة ، و لكَن هَا أنَا أَعود إليهَا غَير مُدركة كَيف سَمحتُ لنفسي أن أتَطفل على صَديقة لَطيفة كَخديجة ، كانت لَطيفَة جداً ، جَلست بجَانبي و بدَأت تَبحث في جَوالهَا المحمُول :

ـ لَحظة !

ـ نَعم خُذي وَقتَك ..

كَانت تَبحثُ عن أَشَياء عَبر اليوتيوب ، حَتى وَجدتها :

ـ هَل تَستطيعين أَن تَقولي لي من يَقتُل هؤلاء الأَبرياء ، و بَأي حَق يُرتَكب بهم هَذا الإجرام !! ..

كَانت أَفلام من القُدس و فلسطين و إسَرائيل ، صَمتُ وَقتهَا و تَركتُ لهَا حُرية الكَلام :

ـ عَزيزتي شارلوت لم أقصد ، و لكن أنَا لا أُدَافع عن أولئكَ الإرهَابيين و لكن أنا أُنصف الجَميع ، إن هَذه المُنظَمات الإرهَابية هي صنَاعة أُممية مُتَكاتفة ، وُجدَت هُنَا لتَزرع الدَمَار و الإرهَاب و تُزَلزل أمن البشَرية من أجل أن تَسير مَصَالحهم ..

كدتُ أسَتمعُ لهَا بمنطقية العَاقلة التي تُريد أن تَهم مَا يَدور :

ـ هَل تَعرفين بأَنَني يَهودية ! ..

ـ نَعم أَعرف !! ..

ـ في دينكُم لا يُسمح بأن تُخالطوننَا ، لمَاذا أنت تَتَحدَثينَ معي!! ..

ها ها ها .. ضَحكت كَثيراً حَتى سَالت دُموعها على خَديهَا :

ـ بل في ظَنك هَذا الشَيء ، الله لم يُحرم عَلينَا الحَديث مع الآخرين ، و لو حَرم ذَلكَ مَا عَبدتهُ ، و شَعرتُ بأنهُ يُريد أن

يُقصينَا عن المُجتمع ، و لكَن لأنَ الله هُوَ الحُب عَبدتهُ و أَتمرتُ لأوامره ..

كَانت الأَجواء جَميلة ، لم تَكُن الأَجوبة استفزازية ، كَانت دَافئة هَادئة جَميلة أَنيقة تَحملُ رَسَائل حُب و خَير ..

ـ لا بُدَ أن نُجَهزَ طَعام رمَضَان يَا خَديجة ..

ـ هيَ نَتَعاون مَعاً ..

ـ هَيَّا ..

كُنتُ كَدجاجَة حَمقاء تَماماً تَبدأ النقاش و لا تَعرف كَيفَ تَخرجُ منهُ ، و كَانت خَديجة كَحمَامَة بَيضَاء تَقفُ فَوقَ السُطور ..

دَقائق و تَغيب شَمس هَذا اليَوم ، كَل شَيء سَاكن ، صَوت الأواني التي كَانت تَغلي و التلفاز و بَاريس و أنَا و خَديجة.. في الحَقيقة أمراً مُضحكاً ..

رُفع صَوت أذان المَغرب كَمَا قَالت خَديجة ، مَا ألذَهُ من طَعام ، كَانت خَديجة مُستمتعة مَعي و لم ألحظ أنهَا مُتَضَايقة أبداً ..

ـ هَل كَانَ يَوماً شَاقاً عَزيزَتي خَديجة !! ..

ـ نعم كَان عندي عَمل كَثير ، و انتَهيتُ منهُ بسُرعة كَي أُعد طَعَام الإفطَار ، و لو أنَك لم تَأتي كُنتُ سَوف أَدعَوك لكَي تَأتي ، فَأنَا لا أُحب تَناول الإفطَار لوَحدي ..

ـ هَل حَقاً مَا تَقولينهُ !! ..

ـ نَعم

ـ لمَا هَذا العَذاب !! ..

ـ أي عَذاب تَقصدين !؟ ..

ـ الامتنَاع عن الطَعام و الشَراب طيلة النهَار ! ..

ـ إنه تَطهير للنَفس و تَزكية للقَلب ، و مَحواً للذُنوب و غَير ذَلكَ كَثير ..

ـ و هَل الآلهة بحَاجة إلى كُل هَذا الجُهد كَي يَغفر ذُنوبَكُم و يَعفو عَنكُم ، و لكن أنت لَست بحَاجة إلى مَغفرة ، قَلبك كَبير جداً يَا خَديجة ، و لَو لم تُطلقي على نَفسك اسم خَديجة للقبتُك بالقديسة ..

هَا هَا هَا .. ضَحكت خَديجة حَتى سَقطت أَرضاً :

ـ لا بُدَ أنَك تَمزَحين ..

ـ لا أبداً ، كَمَا أَنَني أعتقد بأنَك لا تُؤمنين بتقديس الأشخاص..

ـ و من قَال لك ذَلك ، الله يُعطي الكَرامة لأحبائه ، حَيثُ قَال: إنَ أكرمكم عند الله أتَقاكم ..

ـ هَل تَعتقدين بأنَ الله يُحبني ..

لم أَكُن أَتوقع جَوابهَا الَذي مَسمرني في مَكاني :

ـ و من قَال لك بأنَ الله لا يُحبك يا شارلوت ! ، نَعم إن الله يُحبك حُباً جمَّاً ، لَقد دَعاك إلى مَائدَته ، و جَعلك تَسمعين إلى كَلامه ، و تَقرئين دَعوته ، و لأَنَ الله يُحَبك جَعلني جَارة لك ، لَقد قَالت لي أستَاذتي إذا كَانت جَارتك من غَير دينك فاعَلمي بأنَ الله يُحبُهَا ، نَعم هُو يُحبك يا شارلوت و أنَا مُتأكدة من ذَلك ، لأنهُ الرحمن الرحيم فَهوَ لا يترك أَحداً ، و يَستَعملهم في طَاعته و مَحبته ، فَأنت من أَهل المَحبة يا صَديقتي .

نَعم إن الله يُحبني ..

كَان كلامُهَا جَميلاً نَقياً مُرتَباً ..

أُحبُ أنَاقتَهَا في كُل حَالهَا ، حجَابهَا ، عطَرهَا ، طَعامهَا ، دَيكور بَيتهَا المُتَواضع البَسيط ، ابتسَامتهَا ، خَديجة بالنسبة لَي لَيست فَقط صَديقة أَو إحدى جيراني ، بَل عَائلة اعتَدتُ عَليهَا ..

هَا هُوَ الشهر الثَالث و لم أقرب لرَجُل ، و لم تَعُد الشَهوة تُراودني ، لأنَني شَعرتُ بالأَمان ، وجدَتُ الشَيء الذي أَبحثُ عنهُ ألا و هُوَ الإيمَان ، كُلمَا رَأيتُهَا تَقف بَين يَدي الله و تَرفع رَأسَهَا و تَخفضهُ و تَفعل تلكَ الحَركَات بركُوعهَا و سُجودهَا ، كَان قَلبي يَقبضني ، شَيء يَشُدني إليهَا ، يَرفعني و يَخفضني إلى السمَاء حَيثُ النُور السَاطع الذي لا يُوصَف..

كُنتُ أُمسكُ مسبحتهَا ، حَبَات من أحجار الفَيروز الكَريمة ، جَميلة مُنمقة مُتسَاوية ما يُقَاربُ مئة حَبة ، كَانت الحَبات تنَحدرُ بيَن يَدي كَأنهَا سحر ، و كُنتُ ألمسُ حجَابهَا المَصنوع من قُمَاش مُلون شَرقي ..

كَانت جَميلة جداً خَديجة ..

و كانت تَعرفُ انتَقاء كُل شَيء الهادئ الخَفيف اللَطيف، و حَتى سجَادة صَلاتهَا كَانت كَالريشَة مَصنوعة من الحَرير المَنقوش المُزركَش ..

و لكن كُنتُ أَخافُ من شَيء وَاحد فَقط ..

أَن أَقفَ مع ذَاتي وَقفة صدق ، لأنَ النَفسَ كَانت قَد أحَاطت بي طُغياناً و علماً ، حَتى لم أَعُد أَنظُرُ إلى المرآة خَوفاً من رُؤية وَجهي ..

ـ لَقد قَرأتُ بأنَ الكَلب نَجس في الإسَلام !! هَل هَذا صَحيح يَا خَديجة !؟ ..

إنهَا بَيت من الحكمة ، كُنتُ أعَلم بأنَ إجابتَهَا بالنسبة لي مَصدر ثَقة :

ـ نعم هَذا صَحيح ، و لكن كَلبك لَيس نَجس لأنهُ للحراسَة ..

ـ أوه هَل هَذا حَقاً !! ..

ـ نَعم عَزيزتي ..

كُنتُ أتَنفسُ ثَاني أُكسيد الطمأنينَة بَعد كُل إجابة ، فَأنَا لم أَعُد أَثق بالكُتب الكَثيرة و لا الوَفيرة و لا المَواقع التي تَبثُ السُموم عن الله ، قَالت لي ذَاتَ مسَاء :

ـ الله هُوَ الحُب !! ..

مَا أَجملهُ من وَصف ، كُنتُ أشعرُ بأَنَ قَلبي يَطيرُ رَقصاً بعد كُل كَلمة حُب تَصفُهَا عن الله ..

ـ هل الحُب اسم من أَسماء الله ! ..

ـ نعم اسم و صفة ، و لكن لا يشعُر بهذه الكلمة إلا من أَخرج الحقد و الكَذب و الحَسد من قَلبه يا شارلوت ..

ـ كيفَ سَأشعُر بهذه الكَلمة !؟

ـ بالطُهر من كُل مَا هُوَ مؤلم ..

شَهقَ صَدري من وَصفهَا :

ـ إذاً أنَا لا أصلحُ يا خَديجة !! ..

ابتَسمت كَأنمَا الجَنة حَطت برحَالهَا إلى الأرض :

ـ أنَا الذي لا أصلحُ يا شارلوت ، أنت أَستَاذتي في الصَلاح!!..

ـ تبالغين !! ..

ـ كَلا إنمَا هيَ حَقيقة !! ..

ـ هَل أحتَاج أن أَدخل إلى الإسلام !؟ ..

ـ الحُب لا يَحتَاج إلى تَصنيف ، و إنمَا يَحتَاج إلى صدق و نَقاء ، و على مَا أَعتقد بأنَك أتممت هَذه الصفات ..

لقد سَمعتُ بأنَ رَمضَان قَد انتهَى ، و غَداً عيد ، لقد خشيتُ أن تَتركني و تَذهب إلى أَقربائهَا :

ـ هَل أنت مُغادرة باريس يَومَ غَد !! ..

ـ لا أبداً ..

ـ أليس غداً هُوَ يوم عيد بالنسبة لَك !! ..

ـ نَعم ! ..

ـ لا تُريدين رُؤية أَهلك !؟ ..

ـ أنت أهلي ..

شَعرتُ بأنَ شيئاً دَفعني لاحتضَانهَا ألقيتُ بكُلي إليها و رُحتُ أقبلُهَا ، كَانت مَسرورة جداً ، قَطعت هَذه اللهفة بسُؤال :

ـ أنت عَارضَة أزياء أليس كَذلك !! ..

ـ نعم هَذا صَحيح !! ..

ـ و مُصَممة ! ..

ـ نَعم و أَيضاً مُصَممة ، هَل تُريدين رُؤية أَعمالي !؟ ..

ـ نَعم يا حبذا !! ..

ذهبتُ إلى مَنزلي و أَحضرتُ جهَازي اللابتُوب و أَتيتُ مُسرعة ، أعَدت الشَاي مع البسكويت لي و جَلسنَا نُقَلبُ

الصُور و نُشَاهد مَقَاطع الفيديو ، شَعرتُ بأنهَا سَعيدة جداً ، لم أكُن أَتوقع بأنهَا تَرغب برؤية هَذه المُوضَة الصَاخبة :

ـ هَل أستَطيع مُرافَقتك صَباحَ غد !! ..

ـ إلى أين ! ..

ـ إلى صَلاة العيد !! ..

ـ طَبعاً سوفَ أكون مَسرورة بذلكَ ..

ـ هَل حَقاً تَرغبين !! ..

ـ و لمَا لا ، هَذا شَيء جَميل جداً ، و هَذا العيد للجميع و لمن يؤمن بالحُب ..

ـ و لكن النَاس سَوف يَضحكونَ عَلي إن ذَهبتُ مَكشوفة الرأس ..

ـ لا تَقلقي لن يَضَحك عَليك أحد ، النَاسُ هنُاكَ لُطَفاء جداً و يُحبونَ الخَير للجميع ..

ـ أُريد أن أضع الحجاب على رَأسي و أذهب مَعك ، مَا رَأيك !!

لَعلي فَقدتُ عَقلي !! ..

كَلا ، إنهُ الحُب كَمَا كُانت تُطلقُ عَليه خَديجة ..

سُرت بمَا اقَترحتهُ عَليهَا :

ـ لكن ! ..

ـ لكَن مَا يَا خَديجة ! ..

ـ لا شَيء و إنمَا كُنتُ أُريد منك أَن تُفكري جَيداً بمَا تَتصرفين به من خَطوات لاحقة !! ..

ـ أَلم تَقولي بأنَ الله هُوَ الحب ..

ـ نَعم هَذا صَحيح ، و لكَن في نَفس الوَقت لا نُغيب آلة العقل من أجل الحُب !! ..

كَسرنَا حدَة النقاش ، مَع أنني لم تَصلني ذَبذَبات المَقصود من كَلامهَا ، عَرفتُ أَنهَا سَوف تنَطلقُ إلى صَلاة العيد السَاعة الخَامسة و النصف فَجراً ، حَتى تَأخُذ مَكَاناً في مُصلى بالقُرب من نَهر السين ، بَدأتُ أُفتشُ عن هَذا الدين بالنهم ، و كَأنَني أُريد أن أَكتَشفَ جَارتي الرُوسية ، كَأنني أَتسَابق لكَشف أَرقامهَا السرية و مع ذَلك كَان ضَميري دَائماً يُؤنَبني : عَيب يا شارلوت ..

الحَل هُوَ أن أَدخُل البَوابة الصَغيرة إلى هَذا العَالم ، كَوكَب الإنترنت و البحث أَكثَر في مَاهية هَذا الدين ، و لكن من أَينَ أَبدأ !! ..

من حَيثُ انتَهى السَائرونَ من المَشي حُفَاة و عُراة يَلهَثونَ خَلف الدَليل ، لا دَليل يَجمعُهم سوى الحُب ، و لكَن إن كَانَ الحُبُ هُوَ الحَلقة المَفقودة فَمن أَينَ يَأتونَ بالدَليل ! ..

من أَهوائهم و أَطمَاعَهم و شَهواتهم !! ..

نَعم الشَهوات و الجيوب هي الدَليل الوَحيد لإراقة الدمَاء ، و إن هَذه الدمَاء التي تُراق باسم الله لَم تَأتِ من مَحض صدفة بَل من أَجل الإقصَاء ..

نَعم نَحنُ مُجتمعات تَعيشُ على أَنقَاض الآخَرين ، لم تَقُول لي كَيف ! ..

سَأقول لك يا عَزيزتي ، وجودك الفكري و العَقدي و القومي ، لم يَأتِ عن مَحض صدفة ، كَلا أَتَيت بَعد حَرب و حَرب ، أُنَاس يُشبهونك كَانوا يَعيشونَ على هَذه الأَرض قَبل أَن تَأتي الخَليقة ، و بسَبب ظُلم أَجدَادك لهَؤلاء القَوم طَوت سيوف من كُنتَ تَتَغنى بهم و تَتَمجد بشَجَاعتهم أَعناق كَثير من الأَبرياء ، و لكن من أَجل مَاذا يا تُرى !؟ ..

من أجل أن نَراكَ اليَوم تَستحي من تَاريخكَ المُتَقَاطر دماً ..
لا تَضَع رَأسكَ أرضاً ، ارفع رَأسكَ كَي يَعرفُكَ مُغرموكَ ، كَي يُشَاهدُوا فَيكَ ظُلم أجدَادكَ ، نَعم ارفع قَليلاً حتى يَتسَنى للجميع مشَاهدَة جماجم أهاليهم ، شارلوت ! ..
مَاذا تَنتظري ، فَتشي عن الدَليل ، أبهرينَا بَاكتشَافاتك ، و أبهرينَا بالدليل ..
كَانَت الشَاشَة الزَمنية تَطحنُ الأخضر و اليَابس ، و لا تَكتَرث بمشَاعر المُشَاهدين ، مَقاطع من الفيديو مُتراكمة فَوقَ هذا العالم ..
الجَميع يُشَاهد الدماء كَيف تنزف بنهم ، بلا أيةَ رَحمة و لا شَفقة و كُل هَذه المصَائب منسوبة إلى الأديان ..
أجوبة بحَاجة لهَا ، و لكن في نَفس الوَقت يُؤلمني سَماعها ، أريد أن أستمعَ إلى أصواتهم كيف يُباد و يُقتَل الأبرياء ، أُريد أن أنصت إلى شَكوَاهم ، و إن كَان الربُ يَراهم فَلماذا لا يُنجد ضعفهم !! ..
مَاذا يَنتَظر يَا تُرى ؟
و من هُوَ المسؤول عَن هَذه الكَوارث البَشرية !!

رَأيتُ أَحدهُم يَتَحدثُ باللغة الفَرنسية و يُنسَبُ لأهَل الله بأنَ الرَب مَنح التَخيير للبَشَر ، و تَركَهُم للأَيام مَاذا سَوفَ يَفعلون ، و في نَفس الوَقت لا يُكلف الرَبُ نَفساً إلا وسعهَا وَهَلُمَ جَرا ..

جَميل أن يُخَير الإنسَان بتَصَرفاته ، و لكن أن يَلحقَهُ الظُلم و جَميع العَالم يُشَاهد تلكَ المَأسَاة و حَتى الآلهة ! ، هَذا لعمري لظُلم عَظيم ..

لم أستطع أن أُكمل هَذا الهُراء و النقاشَات الغَير نَافعة فهي تَغييب للعَقل و المنَطق و استغباء البَشَر جَميعاً ، بتُ أسألُ نَفسي مَا هُوَ نَوع الطَعام الذي يَتعاطونهُ هَؤلاء الحَمقى ، و في الوَقت نَفسه أَقول من أينَ اكتَسبت خَديجة كُل هَذه الأخلاق و الصفات الحَسنة ، مع أنَني كُلمَا شَاهدتُ مَقطع يَتَحدثُ عن دينهَا فَإنَني أُفكَرُ مَلياً .. يَجبُ على هَذه الأُنثى أن تَكونَ قديسة .. و لكن بصَفات أهَل الحُب !!

قَالت لي ذَاتَ يَوم :

ـ أَنا أَميلُ للتَصَوف ..

كُنتُ أعرفُ قَليلاً عن التَصوف ، و أَعرف أَنهُ نوع من أَنواع الكَلاسَيك أو الأنتيكة المُعتقة ، رُحتُ أبحثُ عن التَصوف في مَوقع اليوتيوب ..

ذُهلتُ مذ أن شَاهدتُ أول مَقطع للرقص المَولوي في إستنبول ..

تَكادُ عَيني لا تَمل و لا تَكل عن التَوقف و الدَوران مع الرَاقصين الذينَ أبَهروني ، مع أنني كانت عندي قَناعة مُطلقة بأنَ الإسَلام ضدَ الفن ..

نَظرتُ إلى مَقطع آخَر وَجدتُ بَأنَ ثُلة من النسَاء يُجدن الرَقصَ على النَاي و الدف الجَبلي التُركي و أَيضاً على كَلمات جَلال الدَين الرُومي ..

مَاذا يَجري ..

نسَاء نَاصعات بالنقاء ، أَظهرنَ عَيونَهُنَ إلى الهَواء ، و تَختَفي الأُنوثة خَلفَ وشَاح من حَرير أبيض و كَانت الاهتزازَات تَتَلاحق و تَتَعالى حَتى الشَغف ..

هُنَّ من أرباب الشَغف في دَورانهنَ المُتَكرر ، و نَحنُ المُتعبونَ من مسَافَات الحُب ..

السَاعة الخَامسة صَباحاً ..

هَاتفي المَحمول يَرنُ كَأنهُ أول مَرة يَرن ..

يَستيقظ كَلبي ، و يَبدأُ يَلعقُ وَجهي ، لا زَالت الشَمسُ لم تَخرُج بَعد ، و لكنهُ فَجرُ باريس ..

آووه نَسيت إنهُ يَوم العيد ، إنهُ اسم خَديجة ، ابتسمت من غَير إرادَة مني ، لأَنَني سَعيدة بهَا جداً ..

إنهَا رَقمي السري الذي لم أُخبر به أحداً ..

ـ ألو بُونجور ..

ـ بُونجور ، هَل أَنت مُستَيقظَة !؟ ..

ـ حَالاً سَوف اَكونُ جَاهزة ..

كَان كَلبي على أُهبة الاستعداد ، و لكن هَذه المَرة لن آخذهُ مَعي ، لَقد قَرأتُ في كُتُب المُسلمين بأنَ الكَلب نَجس و لا يَصحُ لَمسهُ ، فَمَا بالي بأنَ آخُذهُ مَعي !! ..

لا أُريد أن أُسَبب الإحراج لخَديجة أَبداً ، معَ أَنني أعتَقد بأنَني لو أَخذتهُ معي لن تُعارض ، إنهَا لَينة جداً هَذه الفتَاة و لا يُزعجهَا شَيء ..

هَذه المَرة إلى المَسجد ، أو إلى المُصَلى كَما قَالت لي خَديجة ، و فعلاً لا أعرفُ الفَرق بَينهُمَا أَبداً ، و لكنَ الفُضول سَحبني مَعها ..

لَقد دَخلتُ لأَستحم ، أَشعر بالرَاحة تَحتَ المَاء ، دَائماً كُنتُ أستَحم لأُجَهزَ نَفسي إلى رَجُل يَلتهمُ جَسَدي ليأكُلني لَحماً و يُلقي بي عَظماً ، كُلما كَسَاني المَاءُ و تَغَلغَل إلى مَسَامَات جلدي شَعرتُ بالنسيان ، نسيان الأَسرة و الليالي الحَمراء و أموال الهَوى و المَشروبات الكُحولية و أَجسَاد الرجَال المُتَرهلة و الغَير مُتزنة أبداً ..

كَأنَ المَاء يسيل و يَسيل بَينَ مَفارق شَعري ، و لكَأنهُ يَغسلُ قَلبي من الهُموم و الغُموم ، كَأنهُ يَوم جَديد لَحَياة جَديدَة ..

جَفَفتُ شَعري بالسيشوار ، و وَضعتُ زَيت الزَيتُون الذي أهدتني إياهُ خَديجة ، و عطر المسك النسَائي ، و ارتَديتُ تَنورة طويلة ذَات اللون البَنَفسجي المُورد ، و أيضاً قَميصاً ذَات اللَون نَفسهُ ، و عَقدتُ الايشارب على رَأسي و أَظهرتُ عُنقي و شَحمة أُذني ، كَان لَدي حَلق نَاعم مَعقود بأحجار من الزَبرجد ، أَيضاً عَلقت الحَلق ..

نَظَرتُ إلى المرآة فَصُدمتُ من هَذا الجمَال ..

أنَا لستُ أنَا ..

شَهقتُ و سالت على خدي دَمعة ..

كَانت مَاحية لجميع ما تَبقى من آلام في قَلبي ..

كَانت حَافلة بالفَرح والسَعادة و السُرور ..

كَانَ الهَاتف يَرن مَرة أخرى ..

ـ الو بُونجور !! ..

ـ الو بُونجور ..

ـ هَل أنت جَاهزة !؟ ..

ـ نَعم سَوفَ آتي إليك حَالاً ..

تَركتُ كَلبي في المنَزل ، و أدرتُ ظَهري أُريد الذَهاب إلى مَنزل خَديجة ، و لَكنهَا أَفزَعتني عندما رَأيتهُا خَلف ظَهري..

ـ أوه رباه ، لَقد أخفتني يا خَديجَة ..

و لكنَ خَديجة وَقفت في مَكَانهَا تَنظرُ إليَّ من أخمص قدَمي إلى أعلى رَأسي :

ـ أووه مَا هَذا يا شارلوت ، كَم أَنت جَميلة تَبدينَ رائعة جَداً..

لَقد احمرت وَجنتَاي من مُجَاملتهَا ، و هَبطَنا بالمصعد مَعاً و عَيناهَا تَكتَشفُ سر هَذا البَريق :

ـ شُكراً لك عَزيزتي خَديجة ، و لكن هَل أَعجبك هَذا اللباس!! ؟؟

ـ عَفواً عَزيزتي ، نعم بالطَبع ، تَبدين رَائعة جداً يا شَارلوت ، لم أكن أَتوقع أن تَخرجي بهَذه الهَيئة أبداً ، و لكن لم أَكُن أَعلم بأنَ هَذا اللباس سَوف يُنَاسبُك ..

ابتَسَمتُ لهَا كَالتي تُريد أن تُخفي إحراجهَا مني :

ـ لَيس لهَذه الدَرجة عَزيزتي ..

ـ نعم لهذه الدَرجة ، فَلقد قُلت لي آنفاً بأنك عَارضة أَزيَاء و مُصَممة ، كم كُنت أُحبُ أن أَتَعلم تصميم الأَزياء ..

ـ حَقاً !! ..

ـ نَعم ، و عندمَا نَنتهي من مَراسيم العيد سَوفَ نَتَحدث عن هَذا الأمر ، لَقد خَرجت في ذَهني فكرة جَميلة ..

لَقد أعَادت خَديجة لَي الأمَل مَرة أُخرى ، علي أن أَعيش حَياة فيهَا سَعادة ، و لكَن لم أَعرف تلكَ الفكرة ، و لكَن جَميع أَفكَارهَا جَميلة و أَنيقة جداً :

ـ كُنتُ أَظُن بأنَ المُوضَة مُحَرمة في دينكُم ، و كُنتُ خَائفة جداً من طَرح مثل هَذه الأسئلة عَليك !! ..

كم هي جَميلة خَديجة :

ـ لا أَبداً المُوضَة لَيست مُحَرمة ، و من قَال ذَلك !

ـ إذاً لمَاذا نَقرأُ هَكذا عن قَوانينكُم و في كُتُبكُم !! ..

ـ هُنَاكَ قَاعدة تَقول : استَفتي قَلبك و لو أَفتُوك ، و لكن نَسينا دَائماً لمَاذا نَسمحُ لغَيرنَا بتَحديد مَسَار حَياتنا ! ، لمَاذا لسنَا مُقتَنعينَ بأنفُسنَا ! ، لمَاذا نَسمحُ لغَيرنَا بتحدَيد مَصيرنَا !! ..

ـ نعم هَذا السُؤال به وجهة نَظَر ، لمَاذا ! ..

ـ في الحَقيقة لأَنَنا لسنَا على قَدر كَاف من تلكَ الثقة بقُدراتنا ، لو أي إنسَان يَحملُ الثقة بنفسه و يَعطيهَا زمَام الأمور لمَا وَجدت اليأس قد سَطَا على قلوب الشَباب و على مُستَقبلهم ..

ـ إذاً من هُوَ الذي نَزعَ الرَحمة من قُلوب البَشَر !!

ـ إنهَا آلهة من دَم !! ..

ـ مَاذا يَا خَديجة ! ..

ـ نَعم إنهَا آلهة من دَم ، هَذه الآلهة هي التي تُحَددُ مَصير العَالم ، بجُيوبهَا و مصَالحهَا ، و ظُلمهَا ، و أَطمَاعهَا ، الحُبُ فَيهَا أَمر مُستَحيل ، و الخَيرُ بهَا مُتَبخر ، جَعَلتنَا نَكرهُ بعَضنَا البَعض و قَسَمتنَا و شَردتنا و مَزَقتناَ ، و جَعلتنَا أُمَماً نَقاتلُ عنهَا و نَحنُ لا نَملكُ العَقل و لا الوَعي ممَا نَفعلهُ بأنفُسنَا ..

ـ مَا هُوَ الحَل يَا خَديجَة !! ..

ـ الحَل أَن نُؤمن بالحُب ، الحُب هُوَ البطَاقة الوَحيدة لتَنعم البَشرية بالسَلام يا شَارلوت ، إنَ الذي جَمَع بَيني و بَينك هيَ المَحَبة فقط ..

ـ فَعلاً يَا خَديجة أنَا أُحَبك جداً ، لم أَشعُر بهذه الحَالة منذُ زمن طَويل ..

كَانَ الحَديثُ شَيقاً جداً ، و مُفعماً بالأمَان و الدفـء ، حَتى وَصَلنَا إلى المُصَلى استَقبلوا صُويحبات خديجة بالقُبَل و السَلام ، عادَات جَميلة أُريدُ منهَا شَيئاً ، كَي يَحل السَلام في قَلبي ..

انتَهت صَلاة العيد ، لم تَخجل مني خَديجة و لا من مَلابسي التي يَظهَر فيهَا عُنقي ، بل كَانت تعف بي و تَفتَخر :

ـ هَذه صَديقتي و جَارتي شَارلوت ، مُصَممة أَزياء مَعروفة ، و هي أعز صَديقة لي ..

وَقعت في الحَلق دَمعة ، و فَاضت بهَا رُوحي و ارتَقت إلى أن اقشعر جَسَدي ، و مَاجت بهَا رُوحي ..

نَعم أنَا أُختُهَا و صَديقَتُهَا و حَبيبَتها ..

عشنا معاً بمحَبة و سَلام ، أخَرجت الفكرة تَحتَ عنوان :

مُحجبات باريس ..

عَرض أَزياء في عَشرة مَارس ..

تَوافَدت البَشَر من كُل حَدب و صَوب ، كَان الإعلام قَد غَطى جَميع مَمَرات القَاعة ، كَانت فكرة رَائعة جداً ، تَدربنَا عَليهَا أنَا و خَديجة و صَممنَا سَتين غطاء رأس ..

أجمل اللحَظَات بالفَعل ، أول مَرة أرى هَذا الجَمهور الضَخم من كُل العَالم ، أميرات و مَلكَات من الخَليج العَربي و الهند و الصين و اليابان و غَيرهَا ، الجَميع يَنتَظر العَرض ، كُنتُ أستمعُ للتَصفيق كَيفَ يَهز القَاعة ..

انتَهى العَرض و جَاء دَوري للخُروج إلى حَلبة العَرض كَمَا تَجري العَادة في دُور عَرض الأَزياء ، خَرجتُ إلى الجمهُور بأحد الأغطية على رَأسي ، و كَان التصفيق لا يَهدأ أَبداً ، الجَميع وَقف احتراماً لي و لعَملي ، و لكن أمسكتُ المَايك :

ـ شُكراً لكُنَّ ، و لكن أنَا أَشكُر صَديقتي خَديجة على هَذه الفكرة الرَائعة ، و أنَا اليوم أَقر و أعتَرف بأنَني مُمتنة لهَا جداً ، أُريد أن أُعلن أمَام الجَميع بأنَ الإسلام أعجبني جداً لأنَ فيه أناس بمَرتَبة القديسين كَأمثال خَديجة ..

شُكراً ..

أتمَمتُ رواية:

آلهَة من دَم

في بَلَد الحُرية و الديمُقرَاطية : النَمسا ، في عَاصمَة البيانو و الكَمنجَة : فيينا ،

في مَقهى في المَكتَبة العَامة مع تَسَاقُط الثَلج ..

السَاعة : 00 : 02 ، بعد أن عَرفنَا الحُب ..

من تَاريخ : 2 / مارس / 2018 .